

رواية

كفر العبيط

(الرواية الفائزة بمنحة
الصندوق العربي للثقافة والفنون آفاق)





أسامة الشاذلي

دار نهضة مصر
للنشر





كفر العبيط

(الرواية الفائزة بمنحة
الصندوق العربي للتنمية آفاق)

تأليف
أســـامة الشـــاذلـي



العنوان:

كفر العبيط

تأليف:

أسامة الشاذلى

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 977-14-4555-3

رقم الإيداع: 9717 / 2012

الطبعة الأولى: يناير 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

إهـــــداء

إلى أربعة عشر عامًا قضيتها بين صفوف القـوات المسـلحة طالبًا الشـهادة التي لم أنلها، لأرويها على تلك الصفحات..

الفصل الأول

تنافست أصوات طلقات الرصاص مع تلك الموسيقى الصاخبة في الارتفاع، وسط موجات من البهجة غمرت كل الذين يحضرون حفل الزفاف، ورسمت على وجوههم ابتسامات كان الصادق منها مضيئًا كأفرع الأضواء الكهربية الملونة التي أحاطت بالمكان.

استعد الشاعر لاعتلاء المسرح بربابته مع صرخات من بعض الحضور تنادي بسيرة «سيف بن ذي يزن»، وآخرون يطالبون بسيرة «أبوزيد الهلالي»، بينما انشغل والد العريس في الترحاب بالقدوم من عِلْية القوم وسادتهم، مع حرصه الشديد على أن يحتلوا الصف الأول أمام المسرح الخشبي البسيط الذي يرتفع لنصف متر عن سطح الأرض.

يستقبل من يأتي ثم يعود في حركة بندولية ليلقي التحية بطريقة مبالغ فيها دلالة على الاهتمام والترحيب بالعمدة حافظ الشيباني عمدة قرية كفر العبيط وكبير أعيانها، دون أن ينسى أن يلقي بتحية

أخرى وإن كانت أقل مبالغة على شيخي البلد اللذين جلسا بجوار كبيرهما في نفس الصف الشيخ سعفان المتولي، ونظيره الشيخ إبراهيم القبلي، قبل أن يستدير مناديًا الصبي القائم بإشعال الفحم بإحضار المزيد من «الولعة» وأحجار المعسل للكبار.

احتضن الشاعر ربابته وبدأ يداعب وترها الوحيد منهيًا إحساسه بالوحدة بين أصابع صاحبه، الذي بدأ الغناء مبسملًا وداعيًا للرسول الخاتم قبل أن يبدأ في إلقاء سيرة «الظاهر بيبرس» متجاهلًا كل طلبات الحضور، الذين انشغلوا بنداء الربابة مع رائحة «الحشيش» التي اختلطت برائحة «الجرن» عمَّا طلبوه وأنصتوا.

حاول العريس العودة لمقعده على المسرح بجوار الشاعر ولكنه لم يستطع؛ لأن أصدقاءه الجامعيين منعوه، وأجلسوه بينهم بعد أن حضروا لتهنئته على الرغم من أن الدراسة فرقت بينهم، حيث اكتفى هو بالحصول على شهادة الدبلوم ورعاية أرض والده، بينما انطلقوا هم لمزيد من تحصيل العلم الجامعي.

أسرع حمد شاهين الطالب بكلية الطب بجذب العريس مداعبًا إياه بمنعه من الصعود على المسرح، بينما اكتفى عبدالعزيز علي الطالب بكلية الحقوق، وخالد البدري الطالب بكلية التجارة، وحسن الفولي طالب الآداب بعمل دائرة حوله حتى لا يغادرهم، وارتفعت ضحكات الجميع قبل أن يحل الصمت فجأة لدرجة توقف الشاعر عن الغناء وارتباك البعض محاولين التوقف عن تدخين «الجوزة»،

مـع دخـول الشـيخ عبدالله شـحاتة إمـام القريـة وعالمهـا الأزهري الوحيد، والذي أتى لإتمام إجراءات عقد القران.

نهـض العمدة حافظ الشـيباني متثاقـلًا ليلقي التحية على الشـيخ الذي غطت وجهه ابتسامة عريضة مهنئًا والد العريس والعريسَ نفسه بالزفاف السعيد.

أتم الشـيخ عبدالله الإجراءات سـريعًا ليودع الحضور، متجاهلًا دعوة والـد العريـس بالبقـاء للعشـاء، مـدركًا أن وجـوده سـيمنع الاحتفـال من استكمال مظاهره، مصطحبًا حفيده طه، ليقوده عبر طُرقات القرية لمنزله.

صاحـب رحيل الشـيخ المزيد مـن طلقات الرصـاص التي دوَّت احتفالًا بإتمام الزفاف، والعريس يصطحب عروسه إلى داخل الدار، تاركًا «المعازيم» ليستكملوا الفرح بصحبة والده وإخوته الصغار.

اسـتعاد الشـاعر الحالة التي وصل إليها قبل التوقف بسـبب حضور الشـيخ، وجلجـل صوتـه ليعانـق أرواح الحضـور، الذين تمايلـوا طربًا واكتفـوا بإطـلاق الآهـات في سـعادة، بينما زاغـت عينا العمـدة حافظ الشيباني باحثة عن والد العريس مستعجلًا الطعام من أجل الانصراف.

التقطـت عينا صاحب الفرح إشـارة عيني العمـدة فصرخ بصبيان الفرح من أجل مد المناضد و«الطبليات» لبدء العشـاء، دون الانتظار حتى نهاية فقرة الشـاعر، الذي ما إن سمع صوت الطعام، حتى انتقل لآخر جزء في السيرة، ملبيًا نداء أمعائه.

«لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» شعار الحضور لحظة تناول العشاء، الذي حاول قتل الصمت الذي يحيط به صوت ارتطام «المعالق» بالأطباق والأواني والصواني النحاسية والمصنوعة من الألومنيوم ببعضها البعض، وانشغل الجميع بإرضاء بطونهم بالمزيد والمزيد من اللحوم، متجاهلين تلك المجموعة الصغيرة التي اصطفت على الجانب الآخر من الترعة القريبة من مكان إقامة الفرح قرب بيت والد العريس، والتي ارتدت كلها زيًّا شبه موحدٍ عبارة عن جلباب أبيض قصير، وغطت رأسها بشال أبيض وأطلقت لحاها، والذين جلسوا يلعنون مثل تلك المظاهر الخارجة عن الدين، والتي يتمنون أن تزول من قريتهم بيدهم؛ تنفيذًا لتغيير المنكر باليد، لكن شيخهم ومعلمهم «أبو حيان» إمام المسجد الأكبر في القرية أمرهم بالانتظار، خاصة مع وجود العمدة في مثل تلك المناسبات.

اعتادت شمس الصباح أن تلتقي بشجرة صَفصاف عالية تقع على شاطئ الترعة الرئيسية عند زيارتها لقرية «كفر العبيط»، تلك القرية الواقعة على أطراف دلتا النيل بالقرب من الصحراء الشرقية، وكأنها فشلت في الهروب منها إلى الصحراء في اللحظة الأخيرة.

لا يزيد عدد سكانها على خمسة آلاف نسمة، يعرفون بعضهم البعض بالاسم، لا يطرقها غريب إلا نادرًا، في مولد شيخها «العبيط» والذي يقام أمام مقامه جنوب البلدة.

الشيخ عبد الله شحاتة إمام مسجد القرية البحري، وسفيرها

الوحيد في الأزهر، لا يحلو له الوضوء لصلاة الضحى إلا أسفل تلك الشجرة، تتلاقى أشعة الشمس الوليدة مع تلك القطرات المتبقية على جسده من وضوئه فتنعكس ألوان قوس قزح السبعة، قبل أن تتبخر القطرات بفعل الشمس وهو غارق في صلاته بجوار جذع الشجرة، يعرف مريدوه في القرية أن سنه الكبيرة لا تسمح له بارتياد المسجد إلا في الصلوات الخمس، ولكنهم يحضرون إليه إذا اشتاقوا لعلمه، أو اختلفوا في ميراث، أو مسألة فقهية، لا يعتدون كثيرًا بباقي الأئمة في المساجد الثلاثة الأخرى، لأنهم يعرفون أن أحدًا منهم لم تخْطُ قدماه الأزهر يومًا ما، وإن أطلقوا لحاهم وقصروا جلابيبهم، وتحدثوا باللغة الفصحى.

يعتبر الشيخ عبدالله صلاة الضحى خلوته النهارية، التي لا يزعجه فيها إلا حفيده الأصغر طه، ذلك الفتى النحيل القصير الأسمر ذو السنوات العشر، يحب الجد صحبته لأنه أشبه أحفاده به شكلًا كما يقول، ولكنه ينكر كثيرًا من شقاوته على عكس الجد الهادئ منذ نعومة أظفاره.

يتأمل طه جده وهو يقرأ سورة الفاتحة متشاغلًا بملامحه عن الصلاة التي يؤديها بجواره، يتأمل تلك الشعيرات البيضاء القليلة المتناثرة في جانبي الرأس والمؤخرة، يميل برأسه قليلًا للأمام ليرى تلك الجبهة التي اتسعت بفعل سقوط الشعر وتلك الشامة الكبيرة التي تزينها على شكل عنقود عنب، وهاتين العينين الضيقتين اللتين

يظن من يراهما أنهما مغلقتان على الدوام بفعل صغر حجمهما والخشوع الدائم للشيخ والذي يجعلهما شبه مسبلتين، يتركهما طه لحالهما بعد سماع تكبيرة الجد، فينحني راكعًا ليتابع بعد ذلك الأنف الضخم المكسور، الذي يفخر به الشيخ عبدالله عندما تأتي سيرة حرب 73، والتي حارب فيها كجندي في الخطوط الأولى، وكسر أثناء التدريبات على العبور، تشغل طه تكبيرة القيام من الركوع بصوتها العالي الذي لا يخلو من زجر من جانب الجد للحفيد غير المنتبه للصلاة فينظر أمامه مستعينًا على ذاكرته في تذكر شكل الفم الذي لا تكف شفتاه عن الحركة طيلة بقاء الجد مستيقظًا، إما متكلمًا وإما مسبحًا الله في سره، حتى صار يشبه قبة المسجد الجامع في المدينة القريبة.

ينشغل الحفيد كعادته باستنشاق رائحة اختلاط الندى بالعشب عند السجود، شاعرًا بانتعاش من رائحته، مستقبلًا الجد بابتسامة على سبيل الرشوة عند السلام لإنهاء الركعتين.

يصرخ الجد معاتبًا: يا واد يا طه احترم نفسك قدام ربنا، بدل ما يحرقك في نار جهنم من شقاوتك.

تتسع ابتسامة الحفيد وينحني ليقبل يد الجد طمعًا في سكوته، فيبتسم الشيخ عبدالله رغمًا عنه ويتمتم في سعادة: بس انا بحبك علشان انت أكتر واحد ملتزم بالصلاة فيهم كلهم.

لا تبعد قرية كفر العبيط عن قناة السويس سوى حوالي 50 كيلومترًا، وتقع مهام إدارتها على «العمدة» حافظ الشيباني سليل أكبر عائلات القرية، وصاحب الأملاك الأوسع فيها، وشيخي بلد أحدهما هو إبراهيم القبلي، والآخر هو سعفان المتولي، وكلاهما من أبناء عائلات القرية الأرقى، بينما تقع أقرب نقطة شرطة في المدينة الصغيرة عاصمة المركز، وتقع بجوار القرية بفاصل جسر صغير على الترعة الرئيسية التي تخترقها من الجنوب للشمال قرية «صهايرة» والتي لا يفصلها عن كفر العبيط سوى الجسر فقط، بل الكثير من الدماء، وثارات قديمة بين عائلات القريتين، لدرجة جعلت شرطة المركز تعين نقطة لحراسة الجسر من «شاويش» وجنديين، ومنعت كل المعديات من العمل ليبقى الجسر وسيلة الاتصال الوحيدة بين القريتين.

يستيقظ العمدة حافظ الشيباني كعادته كل صباح لاعنًا كل الخدم في دواره الواسع شمال القرية؛ لأنهم لم يوقظوه لأداء صلاة الفجر، يكتفي بسب الدين لأولهم ظهورًا في مجاله، قبل أن يطلب الإفطار.

يدرك الخدم جميعًا أن سيدهم لا يستيقظ أبدًا قبل توسط الشمس لسمائها، وأنه غالبًا ما يضيع صلاة الظهر أيضًا أثناء تناوله الإفطار، يسرعون إيقاعهم اتقاء لشر لسانه البذيء، ليجد هذا اللسان طعامًا يشغله عن ممارسة هوايته اليومية في السب واللعن.

يتحول حافظ الشيباني أثناء الطعام لكائن متوحد مع طعامه، يتحول الوجه الدائري الذي يشبه «الطبلية» بعينيه الواسعتين وأنفه

الصغير وفمه الواسع، إلى فم كبير مشتبك في الطعام في معركة بقاء، لا تجرؤ حتى زوجته الحاجة إحسان على الاقتراب منه أثناء الطعام، فقط تعد له في هدوء جلبابه وشاله استعدادًا لمغادرته الدوار كما جرت العادة لتفقد حال البلد وأملاكه وزيارة من يهتم بزيارتهم حسبما تقتضي مصلحته.

ينهي حافظ طعامه ويرتدي ملابسه على عجل ملقيًا تعليمات الغداء إلى إحسان، مناديًا على طفله طه، ذلك الطفل الأسمر النحيل ذي السنوات العشر، الذي وقف يتأمله طيلة الوقت دون أن ينبس بكلمة، مطالبًا إياه بالكف عن اللعب مع أطفال القرية العراة والحفاة، ليحافظ على هيبة أسرته بين أسر القرية الفقيرة، قبل أن يغادر الدوار متجهًا إلى الشيخ عبدالله شحاتة، للاستعانة به في إبلاغ القرية بخبر هام، تلقاه من مأمور المركز مساء البارحة.

يفضل حافظ السير في دروب القرية على قدميه ملتقطًا كل نظرات الإعجاب والحسد والكراهية، والتي يشعر من خلالها بأهميته ونجاحه، يبتسم للرجال الذين ينهضون وقوفًا عند مروره بهم محييًا، ويلقي سلامًا شاخطًا لمن يتجاهلون مروره، يسب طفلًا تعثر فيه أثناء لعبه «الاستغماية» مع رفاقه، ثم يسب أباه الذي تركه طليقًا دون تربية ليلوث جلباب «العمدة».

يمر ببيت شيخ البلد سعفان المتولي فيتجاوز بوابته الحديدية مكتفيًا بالوقوف أمام باب البيت مناديًا إياه: يلا يا حاج سعفان، اتأخرنا.

يخرج سعفان بجسده الرياضي الممشوق مسرعًا، يتأمل العمدة شعيراته الشقراء التي زحف عليها الشيب في تلك الخصلة النافرة من «الطاقية»، وزوجًا من العيون الخضر يثيران الحسد في نفس العمدة، والذي ينفث عنه أثناء مزاحهما بمناداة شيخ البلد «يا حسين يا فهمي»، يتصافحان ويسرعان الخطى تجاه منزل الشيخ عبدالله وسعفان يتساءل قائلًا: طيب مبعتلوش ييجي ليه يا عمدتنا؟

يبتسم حافظ في خبث ويرد بلهجة العالم ببواطن الأمور: لازم المرَّادي نديله احترامه، إحنا اللي محتاجينه يا حسين يا فهمي.

■■■

تشبه كفر العبيط قرى الدلتا، بدروبها الترابية التي يحيلها مطر الشتاء إلى مستنقعات أوحال، وبيوتها المنخفضة التي لا تزيد على دورين، إلا في حالات خاصة لبعض العمارات الحديثة والتي تمكنك بسهولة من معرفة أن الأسرة التي تملكها أرسلت ابنًا للخارج في هجرة غير شرعية ووصل ونجح، ولكنها أيضًا فقدت أمامه على الأقل ابنين آخرين.

أغلب بيوت القرية فقدت مصاطبها الشهيرة بعد انتشار المقاهي والتلفزيون والدش، ولكن بقيت مصطبة الشيخ عبدالله كمنتدى للجميع، يقطن أغنياء القرية في شمالها، وبيوتهم تكاد تكون حلقة منفصلة عن القرية بترعة فرعية، بينما تمتد الحقول في الجانب الغربي المتاخم للدلتا بعيدًا عن الصحراء.

يصرخ الشيخ «أبو حيان» في صبي المسجد لكي يسرع في تحضير ساحة المجلس لدرس صلاة العصر، يرتعد الصغير ويسرع لينفذ أوامر شيخ المسجد القبلي، بينما يقف الشيخ أمام المرآة في غرفة ملحقة بالمسجد ليعدل من وضع ملابسه.

«زبيبة صلاة» ضخمة للغاية هي ما يلفت نظر من يرى «أبو حيان» خاصة أنها تبدو وكأنها احتلت نصف الوجه، الذي ضمرت بقية ملامحه لسبب خفي، زادت اللحية الملامح ضمورًا بعد أن تضخمت واحتلت نصف الوجه الآخر، ويردد كارهوه ساخرين أنه استعان بالزبيبة واللحية ليخفي تاريخ والده المتواضع والذي كان يعمل في صناعة أقراص «الجلة» بعد أن كَلَّ بصره في عراك قديم.

لا يهتم محمد البقلي – اسمه الحقيقي – بتلك الأقاويل؛ لأنه يعلم الآن المكانة التي وصل إليها في القرية وكيف أصبح مسجده هو المسجد الأضخم، وكيف صار تلاميذه يؤمون المسجدين الآخرين، ولم تتبقَّ سوى أيام وشهور ويحتل تلاميذه أيضًا المسجد البحري بعد موت الشيخ عبدالله، ويعلم أيضًا أن له الكلمة العليا بين أغنياء القرية، خاصة وهم يلجئون إليه في كل مشاكلهم مع الآخرين، وهو يعرف جيدًا كيف يصدر حكمًا يرضي الطرفين لصالح الغني مستعينًا بكتاب الله.

– كله جاهز يا مولانا.

تنهي كلمات الصبي استرسال أفكار الشيخ، فيحوقل ويبسمل، ويمسك بزجاجة المسك لينثر رذاذها على لحيته وكفيه، ويغادر الغرفة متجهًا للميكروفون ليرفع أذان صلاة العصر قبل ميعاده بدقيقة ليسبق الجميع كما اعتاد دائمًا.

ينهي صلاته سريعًا كما اعتاد قبل كل درس فقط، ويأمر الحضور بعدم الانصراف لأهمية درس اليوم، ويستوي على المقعد الذي أُعد له خصيصًا بينما يلتف الحضور حوله في حلقات، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يبدأ هامسًا على غير العادة:

- رأيت حلمًا بالأمس، أقصه عليكم، ولكن لا تنشروه بين أقرانكم، فهو للخاصة وليس للعامة، وأنتم الآن خاصتي.

يلقي نظرة خاطفة على باب المسجد كأنه يطمئن لعدم وجود غرباء في المكان، ويتصفح الوجوه في روية ويواصل الكلام.

زارني بالأمس أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، لأفصل بينهما في نزاع بسيط.

تقاطعه أصوات الحضور صارخة «الله، الله» سعادة بالفتح العظيم الذي فتحه الله على الشيخ، فابتسم ابتسامة نادرة وأكمل:

- وقفت بينهما خجلانَ، وقلت: كيف أحكم بين شيخي الإسلام؟ فقالا في نَفَسٍ واحد - أقسم بالله في نفس واحد - ولكنك عالم جليل.

تمايل الحضور في طرب وقام أحدهم ليقبل رأس الشيخ، الذي اعتدل وبدأ درسه بعد أن اطمأن لوصول حلمه لغايته.

بينما غادر طه ذلك الطفل الأسمر النحيل ذو السنوات العشر حلقة الدرس، ممتعضًا مما سمعه من الشيخ، عائدًا لعمله في مساعدة حلاق القرية في دكانه.

■■■

لا تعاني القرية من الفقر، ولكن هذا لا يمنع أن نصفها على الأقل يحيا على قوت يومه الواحد، ولكن في الريف لا يعتبر مثل هذا فقرًا مدقعًا، مستوى التعليم مرتفع أكثر في الأسر الفقيرة عن الغنية، حيث أصبح التعليم هو الملجأ الوحيد لرفع مستوى تلك الأسرة، أو السفر إلى أوروبا، فانقسم أبناء تلك الطبقة إلى متعلمين ومهاجرين، وانقسم المهاجرون إلى أقلية حية وأغلبية ميتة، وانقسمت الأغلبية الميتة إلى أقلية عادت جثثها، وأغلبية التهمها البحر.

بينما اهتمت الأسر الغنية بتوسيع أملاكها وربط الأبناء بها، ليستمر مشروع التوسع، ويبقى اسم الأسرة في مكانته، إلا البعض الذي فضل التعليم ولكنه لا يقارن عددًا بمتعلمي الطبقة الأفقر.

في القرية مدرسة للمرحلتين الابتدائية والإعدادية، مما يضطر الشباب لركوب القطار بحثًا عن الثانوية العامة والدبلومات الفنية، وجارٍ منذ فترة إنشاء مدرسة أزهرية، بعد مجهود سنوات بذله الشيخ عبدالله في تحقيق هذا الحلم.

أشعل عبد العزيز النار في الحطب الذي جمعه خصيصًا لعمل الشاي في «قعدة العصاري» كما اصطلح هو ورفاقه على تسميتها، حيث يجتمعون كل يوم خميس، بعد أن يعود من عاد من المركز، أو حتى القاهرة، ويلتئم شمل الأصدقاء. يحاول إحاطة النار ببعض الأحجار اتقاءً للريح، ويتفنن في وضعها بترتيب معين انتظارًا لوصول أول صديق.

يقترب حمد شاهين الطالب بكلية الطب من صديقه في هدوء وعلى وجهه ابتسامة اشتياق قبل أن يصرخ:

- إزيك يا أستاذ عبد العزيز؛ أخبار كلية الحقوق إيه؟

ينتفض عبد العزيز ويلتفت محتضنًا صديقه:

- أهلًا وسهلًا يا دكتور حمد.

وفي خلال دقائق قليلة التأم شمل الجمع بحضور خالد البدري طالب كلية التجارة، وحسن الفولي طالب كلية الآداب، وما بين دوران أكواب الشاي والسؤال عن أحوال الدراسة والمزاح الثقيل بين الأصدقاء الشباب في غياب أعين الآباء والجنس الناعم يستعيد كلٌّ منهم روحه التي تفقدها المدينة أجزاء منها بفعل الغربة ودوامة الحياة المرهقة.

ينفض الجمع بعد ارتفاع أذان العشاء، مع وعد باللقاء عقب صلاة الجمعة في المسجد البحري، وقبل الرحيل لا ينسى عبدالعزيز بحكم

وصوله القرية مبكرًا هذا اليوم أن يخبرهم بإشاعة الشيخ أبو حيان، فينفجر الكل ضاحكين.

يسيرون معًا حتى تفرقهم الدروب، ويتبقى في النهاية حمد وخالد، يتوقفان قليلًا بحجة إشعال خالد سيجارة ليدخنها قبل أن يرى والده الذي لا يدخن أمامه، ثم ينتهز الفرصة ويسأل حمد:

- لساه ابوك الحاج يا حمد راكب دماغه يجوز أمينة لابن الشيبانية؟

يبدو الضيق على وجه حمد ويرد:

- أنا قُلتله يا خالد لازم أمينة تكمل تعليمها. قاللي كمالة البنت في بيتها، بس انا بحاول.

ينظر خالد بعيدًا ويقول مخاطبًا نفسه بصوت مرتفع:

- أني عارف إنكم مرتاحين عننا، بس أني بعمل كل وسعي علشان أتجوز أمينة، وبشتغل حتى في الصيف، كمان أمينة في الثانوية العامة، إزاي تتجوز تيس معاه دبلوم!

يحاصر حمد ابتسامة تحاول احتلال وجهه، ويرسم وجهًا غاضبًا لخالد قائلًا:

والله عال يا سي خالد، حتتغزل في اختي قدامي، اطفي سيجارتك وعلى دارك.

يحمر وجه خالد من الخجل وينصرف مسرعًا، على الرغم من أنه صارح «حمد» منذ اليوم الأول من أحاسيسه برغبته في الارتباط بأخته، خاصة وهو يقترب من الحصول على شهادة البكالوريوس، بجانب عمله في مكتب للمحاسبة منذ عام.

يستدير حمد ليفتح باب دارهم متجهًا لغرفة أمينة وعلى وجهه ابتسامة شقية، يلقي بتحية المساء على أخيه الأصغر طه ذلك الطفل الأسمر النحيل ذي السنوات العشر، الذي جلس يداعب أحجار شطرنج والده القديم.

■■■

يستمتع أهالي قرية صهايرة بنطق اسم جارتهم اللدود كفر العبيط بدلًا من «العبيت»، ويحلو لهم الاستمتاع دائمًا بحكايات مجهولة الفاعل والمصدر تروي شبق نساء كفر العبيط دائمًا لرجال الصهايرة لدرجة تجعلهن يعبرن الترعة سابحات لنيل متعتهن والعودة مرة أخرى للشاطئ الآخر، وزاد من مصداقية تلك الحكايات اعتبار لفظ «المبلولة» لدى العبايتة مرادفًا للمرأة التي فقدت عرضها، أو عملت كفتاة ليل.

ويعرف ذوو العلم في القريتين أن الأصول التاريخية لهذه العداوة بدأت في عهد الخديو عباس حلمي، عندما قرر شق ترعة بين القريتين، وأمر مدير المديرية أن يعمل أهالي القرى التي تمر بها الترعة بالحفر،

ولأن مسار الترعة لا يحمل على جانبيه على امتداد طوله قريتين متواجهتين إلا هاتين القريتين، حاولت كل واحدة منهما التواكل على الأخرى، حتى نشبت الصراعات والاشتباكات، وسال الدم قبل أن يسيل الماء في الترعة الوليدة، ولم تتوقف حمامات الدم منذ ذلك الحين، إلا مع انتصاف تسعينيات القرن الماضي بعد تدخلات وزارة الداخلية، ولكن ذهب الدم وبقيت العداوة دائمًا أبدًا.

يحلو لعفاف الديب التمدد فوق سطح منزلها من عصر اليوم حتى أذان العشاء، تتأمل السماء، وتراجع وحدها حساباتها الخاصة، بلا صديقات أو أقرباء في القرية، بل وينكرون انتماءها لها من الأساس، ينكرونها نهارًا ويطالبون أحيانًا بطردها بعيدًا، ثم يتسللون إلى دارها ليلًا طلبًا للمتعة، تعرف أن قسمات وجهها الصبوح التي جعلتهم ينادونها أحيانًا بـ"هند" متجاهلين اسمها الحقيقي للتشابه الكبير بينها وبين الممثلة هند رستم، وأيضًا علاقة الود التي تربطها بعمدة القرية، الذي لا يمر أسبوع دون أن تخصص له ليلة وحده، هما السببان الرئيسيان لبقائها في القرية.

تعرف أنهم يتناسون والدها ابن الليل الذي كان يقض مضاجعهم ويسرق دورهم ليعود ويسكن غابات البوص على شاطئ الترعة، ولا يحبون تلك الحكايات التي يتناولها الساخرون في أنه ضاجع نصف نساء القرية، وأن نصف أبنائهم من صلبه، لهذا يردون الكيل لابنته التي أنجبها بعد أن بلغ من العمر أرذله، فابتنى دارًا ولم يجد من

يتزوجها من القرية، فعاد براقصة من أحد الموالد، لم يطل زواجهما كثيرًا واختفت الراقصة، يقولون إنه قتلها لأنه اكتشف خيانتها، ويقولون إنها هربت مع عشيق لها، ولكن ما لا يعلمونه أن عفاف ظلت تعاني منذ غياب والدتها وعمرها لا يزيد على ثلاثة أعوام حتى رحل وهي ابنة الخامسة عشرة من سوء معاملته وتعذيبه.

ولا يعرفون أيضًا أن أول المعزين كان شيخ البلد سعفان المتولي، وكيف عشقته سرًّا لسنوات قبل أن يقدمها لسيده حافظ الشيباني، وكيف اعتادت من يومها أن يكون البيت الذي بناه ابن الليل يومًا مقرًّا لفتاة ليل جديدة، يغالون في وصفها أحيانًا فيعتبرها بعض من لم ينالوها مجرد «جنية» أو «نداهة»، من يعاشرها لا يعود إلى حاله أبدًا.

تغادر عفاف سطحها عند العشاء لتبدأ في استقبال عشاقها الذين خصصت لبعضهم ساعات كل أسبوع، والبعض الآخر ساعات كل شهر، وبقي حافظ الشيباني وحده ليلة الجمعة من كل أسبوع، وبقي البيت مفتوحًا بما ينفقه حافظ في تلك الليلة، والخير الحريص على إرساله في كل مناسبة.

يحلو لسكان قرية صهايرة أيضًا معايرة جيرانهم الألداء بكونها قرية «هالعة»، ويحلو للبعض في أن يعتبرها القرية الوحيدة على مستوى مصر التي يمارس فيها البغاء علنًا، داعين الله أن يزيلها من على الأرض، أو يلحقها بالقردة والخنازير أجدادهم كما يدعون. يزعم بعض سكان قرية صهايرة أن كفر العبيط هي القرية التي كان

يعيش فيها بنو إسرائيل في عهد موسى ردًّا على إصرار العبايتة على إطلاق اسم الصهاينة على قريتهم، بينما يحلم كل رجل في «صهايرة» بمعاشرة عفاف، ولا يستحون أن يضربوا أمثالًا بفخذيها واستدارة عجزها، ولين صدرها.

تنهي عفاف إغلاق كل شبابيك المنزل، لتعود إلى مطبخها متأكدة من استواء البطة التي تحضرها للعمدة الذي حل موعد حضوره اليوم، منتظرة إياه أن يوافيها كما اعتاد عقب أدائه صلاة العشاء في أحد مساجد القرية .

تمر ساعات أول الليل أمام التلفزيون في بطء شديد، تتعجب عفاف من تأخر العمدة وعدم حضوره، وهو ما لم يحدث من قبل، لدرجة أنه حتى يوم ولدت زوجته أحد أبنائه تركها ولم يعرف إلا صباحًا والأهالي يهنئونه قبل صلاة الجمعة، ويوم احترق «جرن» القمح بجوار داره، ترك العمال يطفئونه، وأتى مسرعًا لدار الديب ليطفئ ناره الخاصة.

دخلت القرية عصر «الدِّش» والفضائيات منذ سنوات قليلة، ومنذ ذلك الحين بدأت المقاهي في الانتشار، واختفت جلسات المصاطب، انشغل رجال القرية بمتابعة القنوات التي تعرض أفلام الحركة الأمريكية، وعلق شبابها صور «أرنولد شوارزينجر» و «ستالوني» و«فان دام» على حوائط غرفهم، بينما اكتفى الرومانسيون بتعليق صور « نانسي عجرم»، و«مي عز الدين».

حرمت الظروف نساء القرية من الحصول على نفس الخدمة، حيث اعتبر رجالها «الدِّش» حقًّا خاصًّا للرجال فقط لا غير، فبقين أمام قنوات التلفزيون الأرضي يتابعن أحدث الموضات عن طريق مذيعات الربط، اللاتي اختفين من الفضائيات وحل محلهن كلمة NEXT.

اكتفى أغلب أهل القرية بتعليم بناتهن حتى المرحلة الإعدادية ليضمنوا عدم سفرهن خارج القرية لتلقي العلم، بينما غامرت عائلتان بتعليم بناتهما إيمانًا منهما بحق البنات في التعليم، وهو ما عابه الآخرون عليهما، ولكن لم يستطع أحد مصارحتهما بذلك.

أدركت أمينة أن حمد أخاها يقترب من الباب بعدما سمعت خطوات قدمه فتظاهرت بالنوم، غادر حمد الغرفة بهدوء خوفًا من إزعاجها، نهضت وجلست في فراشها مستعيدة ذكريات الأمس، وكيف انتظرها خالد عند مدرستها الثانوية في المركز، وكيف طالبها بإصرار غاضب أن ترفض العريس المتقدم لها، واعتذر لها بأن هذا ما اضطره للمرة الأولى إلى أن يحرجها هذا الإحراج ويزورها في المدرسة، وتذكرت أيضًا كيف أحبته منذ كان يلعب معها ومع أخيها في «صحن» الدار، وكيف كان حمد يقسو عليها كثيرًا ويضربها ويحميها خالد ويداعبها ويصالحها إن غضبت.

وكيف كان حريصًا على متابعتها دراسيًّا رغم أنه يكبرها بخمسة أعوام، وتذكرت أيضًا تلك التضحية التي قدمها في الثانوية العامة

لأخيها حبًّا فيها، مما تسبب في إعادته مادة في الدور الثاني وانخفاض مجموعه واضطراره لدخول كلية التجارة، بينما دخل حمد كلية الطب على الرغم من أن خالد هو من كان يذاكر له دروسه.

تدرك أمينة على الرغم من أنها ما زالت ابنة ستة عشر عامًا أن خالد رجل، وأن هذا الزمان قليل الرجال، وأنه يحبها وهي تحبه، وأنه فرصتها للحياة، تؤمن كذلك أن أباها الحاج شاهين صقر لن يزوجها دون موافقتها، خاصة وهو من تحمل ما تحمل ليعلمها، ولكنها لا تستطيع أن تمنع انقباضًا في القلب يصاحبها كل صباح، خاصة مع ذلك الكابوس الذي ترى فيه خالد مذبوحًا على قضبان القطار.

■■■

يحل كل صباح على القرية محاولًا أن يشبه الصباح الذي سبقه، دون أي تغيير، ينهض الفلاحون لمواصلة رعاية أراضيهم، بينما يكتفي الأعيان بالبقاء في أسرتهم حتى تعلو الشمس قليلًا وتتوسط السماء، بينما يتحرك الأطفال كتروس الساعة الأصغر والأكثر حركة، ما بين المدارس، والأعمال اليدوية، ومساعدة أهاليهم في الحقول، يسرع الجميع بانتظام للاصطفاف خلف أئمة المساجد في صلاة الظهر، ذلك المنتدى الرسمي لمتابعة كل جديد من الأخبار، بينما تكتفي النساء اللاتي لم يذهبن للحقل بإدارة أعمالهن اليومية من رعاية للحيوانات والغسيل وتجهيز الطعام، والثرثرة حول كل جديد

في القرية وقديم دون إغفال سيرة عفاف، ثم الغداء قبل أذان العصر، والبقاء بالمنازل حتى تنكسر الحرارة ويستدعيهن أذان المغرب، ويصرفهن أذان العشاء إلى حلقات السمر والمقاهي والتلفزيون التي سبقهن إليها من لا يشغلهم النداء الصادر من «ميكروفون» المسجد، إلا إذا كان لإعلان وفاة أحد سكان القرية.

لا يعلم الكبار والعجائز السبب الحقيقي في اعتبار الحائط الشمالي للمسجد الشرقي «الأمة» التي يلعب حولها أطفال القرية منذ قديم الأزل، حيث يحرص الأطفال مع نهاية صلاة العشاء على بدء ألعابهم الخاصة.

وبعد تقسيم الأطفال إلى فريقين، بعد أن اقترح طه أن يلعبوا «التهريبة» تلك الليلة، أغمض فريق عيونه، بينما انطلق الفريق الآخر ليختبئ في دروب القرية ومسالكها وبيوتها وقبورها.

فتح الأطفال عيونهم وتركوا أحدهم يحرس «الأمة» واتفقوا على كلمة سر يتبادلونها للتواصل عن بعد، وانطلقوا يبحثون عن أقرانهم في كل مكان.

عاد من عاد منهم بغنيمته من الدروب المظلمة والأماكن المعروفة، وبقت مجموعة في مقابر القرية تحاول إمساك من تبقى، بينما جلس طه على سطح المسجد ينتظر الفرصة للوصول إلى «الأمة» معلنًا انتصار فريقه.

الفصل الثاني

ربما لا تدرك السلالم الرخامية للمبنى العسكري الكبير المحاط بسور مرتفع أنها المتحدث الرسمي باسم المكان، حيث احتل الصمت والهدوء كل جنبات المبنى وبات أعلى الأصوات صوت ارتطام أحذية الصاعدين بالسلم الرخامي، مع بعض المقاطعات من رنين للهواتف هنا وهناك.

اعتاد الجميع هذا الوضع داخل الإدارة، التي يعلو مبناها شعار الهيئة المكون من عجلة حربية قديمة يجرها حصان رفع قدميه ليضرب عدوه بينما حمل راكبها مسطرة حرف «T»، والذي بلغ ارتفاعه دورًا ونصفًا من المبنى المكون من خمسة أدوار، والذي تم طلاؤه باللون «السيموني» الذي يفضله القائد العام وأمر بطلاء كل مباني القوات المسلحة به.

بينما تم كساء كل حوائطه الداخلية بالرخام عدا الدور الأرضي الذي لم يرض عن الجرانيت بديلًا، واحتله مكتب مدير الإدارة

وأعلى ضباطها رتبة ومقامًا، ورئيس أركانه ومساعده الأول، واللذان يستعملان البوابة الرئيسية للمبنى والإدارة، والتي يزيد عرض كل منهما على خمسة أمتار وحدهما، بينما يستعمل باقي العاملين في الإدارة من ضباط وضباط صف وجنود الباب الجانبي للإدارة والخلفي للمبنى والذي لا يزيد عرض كل من مصراعيه على متر واحد.

وكعادة كل مباني الوزارة تم كساء السور بالحجر الفرعوني، وعلقت عليه يافطات تحمل شعارات موحدة «يد تبني ويد تحمل السلاح»، «القوات المسلحة مصنع الرجال»، «منطقة عسكرية ممنوع الاقتراب أو التصوير».

وأحاطت به نقاط الشرطة العسكرية بلونها الأحمر المميز ومنعت المرور حوله.

■■■

غادر العميد سيارته ملقيًا التعليمات على سائقها المجند بالعودة إليه عند البوابة الجانبية الساعة الواحدة ظهرًا، وأسرع الخطى تجاه مكتب مدير الإدارة الذي استدعاه تليفونيًّا قبل تنفيذ مأموريته المكلف بها.

استأذن من مدير مكتب اللواء للدخول، فحصل له على الإذن بعد أن طالبه بضبط وضع «البيريه» علىٰ رأسه، شد العميد من قامته وعبر إلى المكتب عبر الباب الجانبي ضاربًا قدمه في الأرض بشدة

تجاهلها ارتفاع وبر سجادة غرفة اللواء مدير الإدارة، وأدى التحية العسكرية بنشاط صارخ بما لا يناسب سنه:

- تمام يا فندم.

استدار له اللواء بمقعده المتحرك خلف المكتب الخشب الأنيق الذي احتل عرض الغرفة بكاملها والتي بلغ عرضها ثمانية أمتار، وأشار إلى مدير مكتبه لكتم صوت التلفزيون الذي كان يتابعه قبل دخول العميد، ثم أشار له بالاقتراب.

اقترب العميد في خجل مصطنع يقتضيه فارق الرتب، فأشار له اللواء الذي سحب عويناته الطبية إلى منتصف أنفه بالجلوس، وأشار إلى مدير المكتب بالانصراف ملقيًا نظرة أخيرة على التلفزيون الذي احتل نصف مساحة الحائط الجانبي لمكتبه ونشرة أخبار القناة الحكومية التي يلقيها المذيع بوقار معتاد، قبل أن يوجه الحديث للعميد قائلًا:

- سيادة العميد..تشرب إيه؟

■■■

غادر العميد مكتب قائده سعيدًا بتلك الثقة التي وضعها فيه، حريصًا على مراجعة تفاصيل المهمة التي أوكلت إليه بدقة شديدة، لم يفسدها سوى تلك اللحظات التي شدته فيها صور مديري الإدارة السابقين المعلقة على الحائط الذي واجهه، وذلك الحلم المتمرد

الـذي اقتحم خياله سـاعتها متخيـلًا صورته في نهايـة الصف كمدير لتلك الإدارة.

أعطـى تعليماتـه تليفونيًّا لكل الضباط الذين ينوي الاسـتفادة بهـم فـي مهمتـه بعقد اجتماع خلال نصف سـاعة، ليعطي لنفسـه الفرصة للاتصـال بالإدارات الأخـرى التي يحتـاج إلى التعاون معهـا، طالبًا تحديـد موعد لاجتماع أكبر على مسـتوى الإدارات خلال يوم واحد على الأكثر.

وبوصول العقيد والمقدم والرائد والنقيب إلى مكتبه أنهى العميد مكالماته والتفت إليهم مرحبًا خلف مكتبه المعدني الذي يزينه شعار شـرطة «إيديال»، قبل أن يطلب منهم الانتقال إلى غرفة الاجتماعات الصغيرة بجوار مكتبه.

احتـل كل منهم مقعده طبقًا لرتبته فـي غرفة الاجتماعات التي تـم طلاؤها باللون الأبيض واحتلت سـبورة عريضـة أحد حوائطها بينما تراصت المقاعد الجلدية صفوفًا في مواجهة السبورة لتمكن الجالس عليها من متابعة مستخدمها.

ألقـى العميد تلك المزحة التي اعتادهـا في بداية اجتماعاته مقلدًا بيديه وملامح وجهه أحد نجوم الكوميديا الشبان:

– أنا جمعتكم علشان...

معقبًـا بضحكة عالية معطيًا الأمـر لباقي الضحكات بالارتفاع كلٌّ

حسب رتبته، ثم اكتست ملامح وجهه بالصرامة وتفحص كل ضابط بنظرة خاصة قاسية لا تتناسب مع الضحكات التي ابتلعتها الغرفة منذ لحظات قبل أن يقول:

ـ أنا اخترت أحسن ظباط في إدارتي علشان مهمة جديدة، ولحسن الحظ إن رجالتي هما أحسن ظباط فعلًا في الإدارة، واللي متأكد إنهم مش حيخذلوني.

ليعلو صوت العقيد مرددًا بحماس وتتبعه بقية الرتب:

– سيادتك تؤمر يافندم.

■■■

عاد كل ضابط إلى مكتبه لتنفيذ المهام المطلوبة منه حسبما تم توزيعها طبقًا للاختصاصات، على أن يلتقي الجميع في اجتماع آخر بعد 84 ساعة لتقديم تقاريرهم ووضع خطة العمل المبدئية، بينما غادر العميد مسرعًا لاجتماع عام في مبنى الوزارة لباقي الإدارات المشتركة في المهمة، وعلى مدخل القاعة تلقى اتصالًا هاتفيًا من مدير الإدارة، شد جسده وكاد أن يؤدي التحية ولكن وجود الهاتف في يده اليمنى منعه، تلقى التعليمات الأخيرة مكتفيًا بترديد:

– تمام يافندم.

قبل أن يغلق الهاتف ويجتاز المدخل لينضم إلى الحضور من مختلف الإدارات، وبنهاية عبارات التعارف والترحيب، سارع ضابط

صغير بفرد الخرائط التي وردت من هيئة العمليات، وسارع آخر بتشغيل جهاز «بروجيكتور» لعرض التصميمات المطلوب تنفيذها.

واكتفى مندوب هيئة العمليات بشرح المهمة خلال تكليفات محددة لكل مندوب إدارة، حيث انتهى العرض سريعًا بعد تدوين بعض الملاحظات لمراجعة متخصصي التصميم، ثم انتقل الجميع إلى المنضدة الكبيرة في الغرفة لمناقشة المكان المعين لتنفيذ المشروع، أبدى بعضهم قلقه من طبيعة الأرض الطينية التي ستقام عليها الأساسات، وأشار أحدهم إلى وجوب استعمال مادة خاصة تتحمل المياه الجوفية لضمان عمر أطول للمباني، وكذلك ممرات الطائرات.

استمع الجميع لملحوظات مندوب قوات الدفاع الجوي عن أنسب تصميم، ودوَّن كل مندوب مهمته، وانصرفوا بعد استئذان أقدم رتبة بعد الاتفاق على اللقاء خلال ثلاثة أيام لتسليم الخطة المبدئية.

نظر العميد في ساعته التي تجاوزت الرابعة، فكر في أن يأمر السائق بإعادته للمنزل، لكنه قرر في النهاية أن يعود للإدارة للعمل على المهمة التي أوكلت إليه، واستغل الوقت الضائع في زحام العاصمة في إجراء مكالماته الهاتفية مع مرءوسيه لمطالبتهم بالبقاء في الإدارة وإخبارهم بآخر التعليمات.

■■■

أطلت الشمس على الإدارة العسكرية بقوة وكأنها اعتادت أن تصبغ الحياة العسكرية الصارمة بحرها ووهجها، لتزيدها قسوة، بينما انشغل أفراد الوحدة في أداء الطابور الرياضي الصباحي الذي يحضره مدير الإدارة بنفسه، بينما غاب عنه العميد وفرقته المعينة لأداء المهمة داخل إحدى قاعات المؤتمرات في المبنى السيموني، منشغلين بالتحضير للمهمة.

قدم النقيب والرائد التصورات النهائية للتصميم الذي استغرق العمل عليه من قبل الهيئة العليا 6 شهور، بناء على آخر المعلومات، بينما استعرض المقدم طبيعة الأرض والمعدات المطلوبة للإنشاءات، وألقى العقيد كلمته حول أبرز التحديات والمعوقات المنتظرة عند تنفيذ المهمة، واكتفى العميد بمناقشة الجميع فيما توصلوا إليه قبل أن يطلب من جندي «البوفيه» إعداد إفطار خاص للمجموعة، مكافأة على أداء عملهم.

أبدى الضباط ابتهاجهم بلفتة العميد الذي لم يتمكن من حضور الإفطار لاستدعائه بواسطة مدير مكتب القائد للقائه فورًا.

لم يتمكن العميد من شد جسده كالعادة كلما قابل مدير إدارته بفعل السهر وعدم النوم، وزاد من استرخاء جسده دعوته للجلوس على الأريكة بجوار المدير الذي لم يخلع بعد رداءه الرياضي الذي حضر به الطابور.

أمـر اللـواء بكوب مـن القهـوة لمرءوسـه المرهق، الـذي اكتفى بالابتسـام ممتنًّا ومستنشـقًا ذلك المعطر الذي رشه جندي المراسلة الخاص بالقائد في مكتبه برائحة الياسمين.

غـادره اللواء لغرفـة جانبية لتبديل ملابسـه، بينمـا احتضنت كفاه كـوب القهوة متوسـلًا إليها بعض الطاقة لمناقشـة اللـواء، الذي عاد متسائلًا:

– إيه الأخبار يا سيادة العميد؟

– سـيادتك تؤمرنـي باجتمـاع النهـارده علـى السـاعة واحدة مع الفريق كله لعرض الشغل لو وقت سيادتك يسمح.

– موافق جدًّا، بس كلم مندوب الشرطة العسكرية يحضر معاك.

– إنت تؤمر يافندم بس ممكن أعرف ليه؟

ابتسـم اللواء من السـؤال فارتبك العميد وارتـج كوب القهوة في يده قبل أن يحاول الاعتذار عن السؤال، ليقاطعه اللواء:

– سيادة الوزير كلفني أبقى المسئول عن العملية بالكامل، انتفض العميد واقفًا بعد أن رسم على وجهه ابتسامة عريضة قائلًا:

– وكده اطمنا على المهمة جدًّا يافندم.

منـح اللواء مرءوسـه ابتسـامة رضا، مشـيرًا إليه بالانصـراف، مع ارتفاع رنين أحد هواتفه ليرد:

- مين معايا؟

- لازم تبقى عارف يا سيادة اللواء إن دور الشرطة العسكرية مهم جدًّا، يمكن أهم من أي دور.

- ده عشمي برضو.

- في انتظار خطتكم للتنفيذ.

وأغلق سماعة هاتفه في سعادة، قبل أن تقتحم رأسه فكرة جديدة، أجبرته على استخدام الهاتف مرة أخرى طالبًا قائد إحدى مجموعات المخابرات الحربية.

- سيادة العميد وقتك يسمح نتقابل خلال ساعة؟

■■■

تأمل الرائد ملامح وجه النقيب للمرة الأولى عندما نزع غطاء رأسه ليمسح العرق عن جبينه، انزعج للغاية من ملاحظة تلك الجبهة العريضة التي انحسر الشعر عن مقدمتها وتلك العينين الضيقتين اللتين تلاهما أنف أفطس وشفاه بارزة، أشاح بوجهه رغمًا عنه قائلًا:

- البس البيريه يا سيادة النقيب.

اعتدل النقيب سريعًا وارتدى غطاء رأسه راسمًا على وجهه ابتسامة مصطنعة معتذرًا في خجل:

- آسف يافندم ، الدنيا بس حر وكنت بنشف عرقي.

تشاغل الرائد عنه بقراءة الملاحظات المدونة في «أجندته» محاولًا نسيان تلك الملامح، استعدادًا للوصول إلى الأمانة العامة لوزارة الدفاع لحضور اجتماع دعاهم إليه العميد، حريصًا على أن يكون جاهزًا للإجابة عن أي سؤال يطرح عليه حتى لا يحرج قائده.

بينما امتص النقيب ابتسامته الزائفة واكتفى بمتابعة السيارة التي سبقتهم حاملة العقيد منفردًا، متسائلًا في قرارة نفسه عن السبب في أن تنقل العقيد سيارة مكيفة، بينما يركب بصحبة الرائد سيارة «لادا» قديمة تئن تحت وطأة الطريق و«غشومية» السائق رافضة أن تكمله، لولا الأمر العسكري، وقبل أن يفيق من تخيلاته كانت السيارة تجتاز البوابة الضخمة للأمانة، بينما يلقي عليها حرس البوابة من الشرطة العسكرية نظرة اعتيادية وقلبا الضابطين يرتجفان من هول ما يلاقي نظراؤهم من تلك «البيريهات الحمراء»، والتي كان الكفيل في الاشتباك معها، ضياع مستقبل الضابط بجزاء شديد، يلوث ملفه إلى الأبد فيؤخر ترقيته، ويمنعه من أي امتيازات، لمجرد سيره في الطريق مترجلًا، أو ركوبه مواصلة مدنية للوصول إلى وحدته البعيدة.

غادر رائد الشرطة العسكرية مكتب قائده بعد أن تلقى تعليمات المهمة، وتم تكليفه بعرض قراره، الذي يشمل حساب الوقت، لبدء التنفيذ.

لم يشغل باله كثيرًا ببعض التفاصيل الصغيرة في سريته كما اعتاد المرور عليها كل يوم، فقط أخرج هاتفه المحمول، وأجرى اتصالًا

بزميله المكلف بالمهمة من جهاز المخابرات الحربية، والذي صادف أن يكون دفعته، وبعد القليل من المزاح، وتبادل الأسماء الكودية التي أطلقتها الدفعة على أفرادها إبان الدراسة في الكلية الحربية، اتفقا على اللقاء في مقر سرية الشرطة العسكرية، للاتفاق على كل التفاصيل، قبل وضع خطة تحرك سرية الشرطة، وكذلك خطة عملها.

وداخل مكتبه، استدعى الرائد رقيب أول السرية ليخبره بالمهمة، طالبًا منه إيقاف خطة الإجازات، وعمل خطة استدعاء للأفراد الحاصلين على إجازاتهم لاستكمال السرية قبل تنفيذ المهمة، وبانصراف الـ «باش شاويش»، استرجع رائد الشرطة العسكرية كلمات قائده الأخيرة :

- علموك في الكلية الحربية أن النجوم توضع على كتفك لأن رأسك أعلى من السماء، بينما أخبرك الآن أن «بيريهك» الأحمر يجعلك ربًا في هذه السماء بين ذوي النجوم، فما بالك بالمدنيين؟

وقطع استرساله وصول دفعته من المخابرات الحربية والذي استقبله بالضحكات والأحضان، طالبًا من جندي المراسلة إعداد العشاء لهما معًا، ليشرعا في مناقشة الخطة في أجواء حميمة تكفل نجاحها.

■■■

غـادر العميد منزله في السـابعة صباحًا بصحبة سـائقه متجهًا إلى الإدارة، حاول أن يتذكر عدد السـاعات التي نامها، ولكنه فشل بفعل التشـويش الذي يصاحب الذاكرة بفعل الإرهاق، يعرف جيدًا أنه في آخـر 72 سـاعة لم يرح جسـده بما يكفي سـنوات عمره الـ50، لكنه يـدرك جيـدًا أن بعد حصوله على الماجسـتير في العلوم العسـكرية، والـذي جعـل رتبتـه يزينها لقـب «أركان حـرب»، ثـم حصوله على الدكتوراه في العلوم العسـكرية فرع الحرب لا الدفاع، بالإضافة إلى تلـك المهمة إذا نجح في تنفيذها، قـد يؤهله ذلك إلى منصب قيادي مرموق في القوات المسلحة، ليتحقق حلمه بالنجاح.

أسـرع مبدلًا ملابسه العسـكرية بأخرى رياضية لينضم إلى طابور اللياقة الصباحي، حريصًا على الظهور أمام مدير الإدارة الذي أدهشه حرص العميد على الحضور رغم ثقل المهمة المكلف بها، استدعاه بعد إنهاء مراسم الطابور متسائلًا:

– سيادة العميد إنت حاضر الطابور؟

أجابه بعد أن أدى التحية العسـكرية بقوة ونشاط لا يناسبان حجم الإرهاق الذي يشعر به.

– يافندم مفيش مهمة تمنعنا من الالتزام بتعليمات القائد الأعلى.

ابتسم اللواء مدير الإدارة بدوره وربت على كتف العميد:

– أنا اديتك المهمة وانا عارف إنك مش حتخذلني يا سيادة اللواء.

ابتسم العميد لذلك الإطراء من قائده، وترقيته لرتبة أعلى في المحادثة وقال بحماس مضاعف أضافه الإطراء:

- تحت أمرك يافندم.

ثم تبعه جاريًا حول مضمار الملعب بنشاط لا يناسب سنه، مبديًا حماسًا غير معتاد، أضافته منحة قائده، ولم تغادر الوجه ابتسامة حملت حلمًا بـ«كتافة» تحمل السيفين والنسر ورتبة اللواء ومنصبًا مميزًا في المستقبل.

أضاء الجندي المكلف بخدمة هذا الحشد من الضباط أضواء «النيون» التي رقدت في هذا السقف المعلق في غرفة الاجتماعات في هيئة العمليات، بينما انهمك أغلب الضباط الحضور بتجهيز أنفسهم لعرض القرار على اللواء قائد المهمة استعدادًا لتنفيذها، متجاهلين أشعة الشمس التي أبت أن تزور القاعة على الرغم من انتصاف النهار.

سارع جندي آخر برش معطر للجو مع اقتراب حضور رئيس هيئة العمليات لذلك الاجتماع، وسارع الرذاذ بتنفيذ دوره وصمت الحضور اعترافًا بقدوم صاحب الرتبة العليا والمقام الأكبر.

احتل العميد مكانه أمام تلك المنصة الصغيرة في القاعة لإدارة اللقاء، بينما جلس اللواء في منتصف الصف الأول بجوار المقعد الخالي انتظارًا لحضور سيده رئيس هيئة العمليات.

وتحولت القاعة إلى خلية نحل يعمل في صمت بمجرد حضوره وإلقائه التحية على الحضور.

بدأ العميد في شرح المهمة، عارضًا أهم تفاصيلها، في حضور ممثلي الشرطة العسكرية والمخابرات الحربية وإدارة المهندسين، وقيادة الدفاع الجوي وإدارة المشاة.

واستمع في تركيز إلى ملاحظات رئيس هيئة العمليات، الذي أجرى اتصالًا في منتصف المؤتمر لإبلاغ الوزير بآخر الاستعدادات، قبل أن يقطع التواصل بين الحضور وصول الفريق قائد قوات الدفاع الجوي، الذي أسرع رئيس هيئة العمليات بملاقاته وتأدية التحية العسكرية له، مخليًا مقعده له لمتابعة المؤتمر، لتخلى المقاعد بتتالٍ يفوق سقوط قطع الدومينو في أي استعراض.

أنهى العميد شرحه، تاركًا العنان للواء مدير الإدارة للرد على أي أسئلة لكبار علية القوم من رجال القوات المسلحة، في حضور رجاله، الذين أسرعوا بتلبية طلبات نظرات عينيه عند كل سؤال لم يستطع إجابته، وأسهب مندوب المخابرات الحربية في شرح خطته بعد مغادرة اللواء للمنصة، حريصًا على طلب مندوب من الشئون المعنوية للمشاركة في التنفيذ، بينما أعلن مندوب الشرطة العسكرية جاهزيته للعمل دون أي طلبات.

صمت الجميع حين غادر الفريق قائد قوات الدفاع الجوي مقعده واقترب من المنصة ليمسك بالميكروفون قائلًا :

- أبنائي إحنا دلوقتي حنبني قاعدة دفاع جوي في قرية كفر العبيط، كآخر نقطة للدفاع عن الدلتا ضد أي هجوم غادر، مستنني منكم أداء على أعلى مستوى.

نهض الجميع دون إيعاز سبق؛ ليؤدوا التحية مؤمنين على المهمة، التي انصرف صاحبها بصحبة رئيس هيئة العمليات بعدما اطمأنا على التفاصيل تاركَين اللواء بصحبة قواته التي صارت تحت إمرته للتنفيذ.

■■■

خفض الجندي المكلف صوت الموسيقى في مكتب رئيس هيئة العمليات، بينما أبدى الفريق قائد الدفاع الجوي إعجابه بموسيقى عمر خيرت التي ملأت المكان، بينما ابتسم رئيس هيئة العمليات مرحبًا بالفريق الذي تلقى مكالمة هاتفية على هاتفه المحمول، أجاب فيها:

- لازم تجهزوا، خلاص القوات حتتحرك على أول الأسبوع.

ابتسم رئيس هيئة العمليات وقال:

- سيادتك بتكلم حافظ الشيباني.

أومأ الفريق برأسه دون أن يرد، وابتسم رئيس هيئة العمليات بدوره طالبًا الشاي المحلَّى بعسل النحل الأبيض، المشروب المفضل لسيادة الفريق.

الفصل الثالث

أنهى المقرئ الثمن الأخير في ذلك السرادق الضخم الذي أقيم بجوار المسجد الجنوبي لعزاء زوجة أحد رجال عائلة الشيبانية مطالبًا الحضور بالدعاء للمتوفاة، بينما أسرع العمدة حافظ الشيباني مغادرًا الحضور على غير العادة مصطحبًا معه شيخ البلد سعفان المتولي، الذي تساءل في دهشة:

- على فين يا عمدة العزم؟

أجاب العمدة وهو يمد الخطى على عكس ما اعتادت طريقة سيره من تبختر وهدوء يساعده على تفرس وجوه نساء القرية وأحوالها:

- على بيت الشيخ عبدالله شحاتة.

- لكن يا عمدة ميصحش، إحنا لسه مخلصين عزا، حناخد الموت في رجلينا لدار الشيخ.

توقف العمدة فجأة عن السير، والتفت بقوة لتابعه الأمين، بينما احتلت وجهه نظرة غضب عارم، أجبر يده اليمنى على الارتفاع،

وكأنه يهم بالصراخ قبل أن يغلق أصابعه ويعيدها إلى جانبه، مواصلًا السير متجاهلًا صياح الأطفال الذين أخذوا يطاردون بعضهم البعض في دروب القرية أثناء ممارستهم لعبة «التهريبة» وهو يقول:

- إلهي تموتوا إنتم الاتنين في يوم واحد يا بعيد.

هبطت رأس سعفان بين كتفيه في خضوع كلب نهره سيده، بعد أن تلفت حوله ليطمئن من عدم انتباه أي طفل من اللاعبين لما حدث للتو، مسرعًا السير في صمت محاولًا أن يُبقي فمه مغلقًا حتى لا يتلقى المزيد من التوبيخ، مندهشًا من تلك الحالة العصبية التي تملكت العمدة في هذه الليلة، وعن سر عدم زيارته لعفاف في موعده الأسبوعي الدائم.

تباطأت خطوات العمدة رغمًا عنه، عندما اقترب من هذا البيت الصغير المبني من الطوب الأحمر والمكون من دور واحد، والذي بدا في عزلته عن بقية دور القرية مثل عابد خاشع في قيام الليل، بينما تشاغل شيخ البلد بقراءة الآيات القرآنية التي كُتبت بالخط اليدوي الطفولي على جدران البيت، وقبل أن يصلا إلى الباب صفق العمدة حافظ الشيباني مناديًا بصوته الأجش:

- يا أهل الدار.

ليقترب سعفان المتولي من الباب ليطرقه بأدب شديد احتسابًا لمقام صاحب البيت الرفيع.

وخلال دقائق قليلة كانا جالسين أمام الشيخ عبدالله في غرفة الجلوس، على إحدى الأرائك الخشبية، بينما اكتفى هو بالجلوس على سجادة صلاته مرحبًا بالحضور، طالبًا الإسراع بأكواب الشاي الثقيلة.

تحسس العمدة فمه وكأنه يرجوه أن يساعده على تخطي الموقف، بينما اكتفى سعفان بمتابعة شفتي الشيخ اللتين أخدتا في الارتجاف مع التسبيح الصامت، محاولًا محو صورة عفاف من مخيلته، قبل أن ينطق الشيخ متسائلًا:

- خير يا عمدة؟

لم تشرق شمس الصباح في اليوم الجديد على القرية كما أشرقت منذ إنشائها، حيث انشغل كبارها قبل صغارها بمشاهدة تلك السيارات العسكرية، التي ارتصت على الطريق الأسفلتي المؤدي إلى مدخل قريتهم، تصفح الفلاحون هذا الرتل الحربي من السيارات «الجيب» الصغيرة التي ركبها الضباط والصف بأفرولاتهم الصحراوية المموهة، بياداتهم السوداء اللامعة في المقدمة، وسيارات النقل «البيجاسو» التي حملت بعض المعدات والخيام والصناديق في المؤخرة.

اقترب الأطفال بحكم الفضول الفطري أكثر من السيارات، التي بدأ راكبوها في مغادرتها للتخلص من عناء الرحلة وفرد أجسامهم،

بينما اكتفى أقدمهم رتبة بالتحدث في هاتفه المحمول مشيرًا إلى أحد الضباط حتى لا ينفرط عقد جنودهم ويختلطوا بالفلاحين وأطفالهم.

أسرع رقيب أول السرية بإعطاء تعليماته لبعض الجنود بمنع الأطفال من الاقتراب في رفق ودون الدخول في أي حوارات جانبية، وعلى وجوههم نفس الابتسامة التي بادلها الأهالي بابتسامة عريضة أخفت التساؤل في عيونهم عن سبب وجود العسكر في قريتهم، حتى حاول خالد وحمد اللذان وصلا إلى المكان في طريقهما إلى محطة القطار استعدادًا للعودة إلى جامعتهما الاستفسار عن السبب بعد أن أدهشهما أيضًا هذا التجمع.

اكتفى الضابط الصغير للذين حاولا سؤاله بكلمة واحدة قبل أن يشيح بوجهه عنهما قائلًا:

- مأمورية.

التوت الشفة السفلى لحمد دليلًا على الامتعاض، وهز كتفيه معلنًا الانصراف للحاق بالقطار، بينما انعقد حاجبا خالد في غضب ليصرخ في الضابط:

- ممكن توضح أكتر.

ألقى الضابط الصغير نظرة لا مبالية ثم عاد إلى مقعده في السيارة معدلًا من وضع نظارته الشمسية بعد أن مسحها من التراب؛ حاول

خالد الاقتراب ليمنعه أحد الجنود، بينما أسـرع حمد وجذبه من يده بعيدًا وهو يقول:

- يا خبر النهارده بفلوس بكره يبقى ببلاش، القطر حيفوتنا.

عجـز خالـد خـلال سـيره مع حمد عـن منع نفسـه مـن الالتفات لمتابعة الموقف، بينما دندن حمد مغنيًا:

- قولوا لعين الشمس ما تحماشي.

ابتسـم خالـد رغمًـا عنه مـن اختيـار صاحبـه للأغنيـة ودخلا في حـوار يصاحب طريقهما لينشـغلا عـن حافظ الشـيباني الذي وصل بصحبة شـيخي البلد وشـيخ غفره إلى قائد الرتل العسكري مرحبين ومهللين.

وبعـد تبادل القليل من الكلمات أصدر شـيخ الغفـر تعليماته إلى كل الموجوديـن بالانصـراف إلـى أعمالهم وبيوتهـم، وتحرك الرتل ببطء في اتجاه بدا وكأنه يعرفه، بينما انصرف العمدة إلى بيت إبراهيم القبلي القريب من الطريق الأسـفلتي وليلة الأمس مع الشيخ عبدالله لا تبارح مخيلته.

لم يستطع العمدة مقاطعة الشيخ عبدالله وهو يحذره بشدة وبلهجة لم يعتدها منه من قبول هذا المشـروع العسكري الذي سيقضي على نصف مسـاحة الأراضـي الزراعية التـي تملكها القرية وهـو ما يعني إفلاس أهلها.

لكـن الشـيباني شـيخ البلـد جلـس صامتًـا منـذ بدايـة حديثه عن القـرار الذي تم إبلاغـه به من الأمس بوصول وحدات تابعة لسـلاح المهندسـين إلى القرية لبناء قاعدة جويـة في مكان تم تحديده، فانتبه سعفان المتولي وقال:

- بس دي أوامر حكومة يا مولانا، وجيش كمان، مين حيقدر يخالفها؟

وأضاف العمدة:

- وكمـان وجود القاعدة جارنا، حيفتح باب رزق لناس كتير تبيع وتشتري للجيش.

ظهر الغضب على وجه الشيخ عبدالله قبل أن يسأل:

- وإيه المطلوب مني؟

نطق كلاهما في صوت واحد:

- تقنـع الناس فـي الكفر محدش يعترض على المشـروع، واللي أرضـه تدخـل حيز القاعـدة يقبـل التعويـض، والحكومـة حتصرف تعويضات للكل.

أجاب الشيخ في حسم:

- حد الله ما بيني وبين خراب البلد، اعذروني.

اعتبر الشـيباني تلـك الجملة نهاية للحوار، نهـض لينصرف فتبعه سعفان، قبل أن يتوقـف عند باب الدار ويهتف مخاطبًا الشيخ:

- القاعدة حتنعمل يا شيخ عبدالله، واللي مش عاجبه هو الخسران، إحنا كنا بس عايزينها تيجي بالحسنى من رجالة ربنا في بلدنا.

أجاب الشيخ مشيحًا بنظره عنهما:

«إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها».

■■■

أنهى الشيخ أبو حيان اجتماعه ببعض أتباعه في غرفته قائلًا:

- المؤمن كيس فطن، يجب أن يستفيد بكل تطورات الأمور حوله، عندكم مثلًا رسول الله عند الهجرة، عندما لحق به سراقة ابن مالك وعثرت فرسه، ثم تحدث مع النبي قال له صلى الله عليه وسلم: أتؤمن أني رسول الله؟ فقال: لا، فقال له الرسول: أَخْفِ عنا. أي لا تدل المشركين علينا، وكان له ما كان، نبينا وقدوتنا استفاد من الموقف، وعلينا الآن أن نستفيد.

ثم نهض واقفًا معطيًا الإذن لهم بالانصراف، مناديًا على صبيه كي يبدأ استعداداته لصلاة الظهر.

وما بين ركعات السنة وقبل إقامة الصلاة، ألقى أبو حيان كلمة مختصرة عن طاعة أولي الأمر، محذرًا من عواقب العصيان، ونار جهنم التي تنتظر صاحبه، وما إن أنهى صلاته وتحدث قليلًا مع المصلين خلفه، حتى أسر بكلمات في أذن صبيه، ابتسم العمدة طويلًا عندما وصلته في شرفة منزل شيخ البلد.

وبمجرد انصراف الفتى أسند العمدة ظهره على مسند المقعد ونظر ساخرًا لإبراهيم القبلي:

- يعني الضهر ادن ومكلناش لقمة في دارك، قوم يا ابراهيم جبلنا فطار.

ظهرت الدهشة على وجهي شيخي البلد من سعادة العمدة، إلا أن القبلي غادر مقعده صارخًا في أهل بيته بإعداد إفطار مخصوص للعمدة الذي نظر بعيدًا وهو يقول مخاطبًا نفسه:

- أيوه كده يا أبو حيان، بل ريقي.

■■■

ومع رحيل الشمس خلف أشجار «الجَزْوَرِين» التي وقفت تحرس الجانب الغربي للقرية، وعودة الفلاحين من حقولهم، وامتلاء دروب القرية بنعير البهائم وروثها، مختلطًا بإلقاء السلام المعتاد من المارة على الجلوس، وخفوت الصوت تدريجيًا مع الضياء بوصول كلٍّ إلى داره، بدأت مقاهي القرية تستعد لاستقبال روادها، الذين جمعهم على الموائد المتفرقة موضوع واحد.

وقضى الفلاحون طيلة الليل منشغلين عما يعرضه التلفزيون بالسؤال عن السبب الحقيقي لوصول الجيش إلى القرية، وتطايرت الشائعات لتملأ سماء القرية وترافق دروبها عن وجود أسلحة وقنابل قديمة مدفونة في أحد الحقول منذ حروب سابقة وقد عادوا

لاستردادها، بينما رأى البعض أن الجيش قرر أن يمد طريقًا جديدًا يصل إلى القناة عبر القرية، وقد وصلوا لتحديده على الأرض، بينما كان أكثر المتشائمين تخيلًا قد صرح بأن الجيش قد قرر بناء نقطة للشرطة العسكرية على مدخل القرية في خطة تنظيم جديدة.

كل هذا لم يمنع العمدة من الشروع في رحلته الأسبوعية إلى عفاف، والتي تأخرت بسبب الظروف.

أنهى ارتداء عباءته، وغادر الدار دون ضجيجه المعتاد راكبًا حصانه الأبيض على غير عادته في التجول داخل القرية على قدميه، منبهًا على الغفير الذي يقوم بالخدمة عند الباب بموالاته عند بيت عفاف إذا طلبه أحد «الباشاوات» الضباط في أي أمر.

بينما اكتفى ضباط الشرطة العسكرية بالاستراحة في دوار العمدة أمام شاشة إحدى الفضائيات، بينما نصب جنودهم 3 خيمات في الجرن الخلفي الملاصق لسور البيت.

وبمجرد وصوله إلى منزل عفاف، قفز حافظ من على حصانه برشاقة لا تناسب حجمه، اكتسبها بفعل الشوق والفوران، وعند اجتيازه عتبة الباب ألقى عباءته ونادى بصوت خفيت:

- عفاف، أني جيت يابه.

يقولون إن الوحدة ترهف من حدة السمع، اشتياق آذان الوحدة للصوت يجعلها أكثر حساسية من الأذن العادية، وهو ما جعل عفاف

تستمع إلى النداء، بينما كانت قطرات الماء تغمر جسدها في الحمام، فغـادرت «البانيو» الصغير وفتحت الباب منادية في دلال لم تتصنعه، بل صار طبيعيًّا بحكم العشرة:

- أنا هنا في الحمام يا حفوظة.

أسـرع العمدة خالعًا جلبابه وملابسه الداخلية مجتازًا طرقة البيت إلـى حمامه الذي يعـرف مكانه جيـدًا، واحتضن عفـاف التي عادت لتقـف تحت الـدش ليغيبا عن طنين القرية الذي لـم يتوقف بحثًا عن حقيقة وصول العسكر لأراضيها على غير المعتاد.

■■■

أدى العميـد تحيته العسـكرية المعتادة لقائده اللـواء مدير الإدارة قبل أن يستنشـق عطرًا شـديد التركيز ملأ المكتـب ليلفت نظره الزي المدني الذي ارتداه اللواء داخل مكتبه، فيتلعثم في الكلام.

ابتسم اللواء لذلك الارتباك الذي أصاب مرءوسه، وعلت ضحكته لتكسر صمت الغرفة التي غاب عنها صوت التلفزيون المعتاد:

- معلهش يا سيادة العميد، عندي عزا مرات ابن عم المشير.

ردد العميد دون أن يفكر:

- البقاء لله يا فندم.

أشار إليه اللواء ليجلس، بينما سحب مقعدًا واقترب منه قائلًا:

- سرية الشرطة وصلت، خير.. إيه آخر أخبارك؟

أخرج العميد ملفًّا من حقيبته فأشار له اللواء معترضًا:

- لا مفيش وقت لتقارير، أنا لازم اتحرك خلال 5 دقايق، صلاة العشا أذنت.

انتفض العميد واقفًا:

- كله تمام يافندم بس عندي نقطة واحدة عايز أستفهم عنها.

أشار إليه اللواء ليجلس مرة أخرى واقترب منه برأسه متسائلًا:

- إيه هي؟

- سيادتك إحنا إزاي حنتحرك وحطينا ميعاد خطة التنفيذ مع بدء الأسبوع الجاي واحنا لسه معندناش تنازل الفلاحين عن الأرض؟

نهض اللواء عائدًا إلى مكتبه، ليفتح أحد أدراج مكتبه مخرجًا ساعته الـ «روليكس» ليرتديها، قبل أن يعيد تصفيف شعره أمام مرآة صغيرة بجانب مكتبه، ليقترب بعدها من الباب الخاص به استعدادًا لمغادرة المكتب قبل أن يقول بحزم:

- انت عندك ميعاد تشتغل عليه وبس، متسألش حاجة مش من اختصاصك.

وجد العميد نفسه وحيدًا بعد انصراف مدير الإدارة، فتلفت في دهشة قبل أن ينصرف هو الآخر مخاطبًا نفسه:

- طب وانا مالي صحيح...ادبح يا زكي قدرة، يدبح زكي قدرة.

■■■

غادر العمدة منزل عفاف بعد انتصاف الليل، بعدما هجع أهالي القرية تمامًا، وبقيت الحيوانات الضالة تملأ الفراغ الصوتي في الهواء بأصواتها الحادة، مشى قليلًا على قدميه ساحبًا حصانه خلفه قبل أن يقرر ركوبه والعودة إلى الدار.

بينما عادت عفاف مرة أخرى لحمامها لإزالة أثر الليلة من على جسدها وهي تتساءل عن ذلك التغير الهائل في العمدة الذي قضى في دارها حوالي ست ساعات، قضى أكثر من نصفها في الحديث حول وصول الجيش إلى القرية والقاعدة التي ينوون إقامتها على بعض الأرض الزراعية، وخوفه من غضب الفلاحين ورفضهم التنازل عن تلك الأراضي.

لم تفهم جيدًا ما قال، لكنها تأكدت أنه مشغول وليس في حالته عندما التقيا في الفراش، خبرتها به في كل الليالي التي سبقت تلك الليلة أنبأتها أن به شيئًا مختلفًا، أسعدها هذا لأنه قضى وطره مرة واحدة ولم يرهقها كالعادة، وعجز عقلها عن استيعاب كل ما رواه، لكنها قررت أن ترى العسكر في الصباح قبل أن تفعل أي شيء.

ولهذا عادت إلى فراشها تاركة نفسها لأحلام يقظة مراهقة، أن يعجب بها أحد الضباط ويصطحبها للقاهرة لتغادر تلك القرية التي لم تحبها أبدًا.

وصل العمدة إلى داره، ولكن قبل أن يأوي إلى فراشه كان

حريصًا على الاطمئنان على ضيوفه الضباط، الذين غرقوا في سبات عميق أدركه بفعل الأنوار المطفأة والصمت الذي حل في غرفهم في الدوار، فأوصى خادمه المكلف بمتابعة أوامر «الباشاوات» بإعداد إفطار خاص في الغد، واستدعائه ليتناوله معهم.

وفي غرفته جلس حافظ الشيباني على فراشه أمام حقيبة جلدية صغيرة، وأخرج منها بعض الأوراق، مقتربًا من شعاع بسيط من الضياء أرسله كشاف جانبي معلق على الحائط خلف فراشه .

ردد في هدوء وكأنه يحاول حفظ أسماء الـ15 مالكًا، المطلوب تنازلهم عن 30 فدانًا في الزمام الشمالي للقرية، أخرج قلمًا ووضع علامات على أربعة أسماء شعر أنهم الأصعب والأهم وأصحاب الحيازات الأكبر، وقرر أن يزور أولهم بعد صلاة الجمعة غدًا بالقرب من داره.

ثم أعاد الأوراق مرة أخرى إلى حقيبته، ووضعها بحرص في دولاب ملابسه، ثم عاد إلى فراشه مشعلًا سيجارة وحيدة بقيت في صندوق سجائره، نافثًا دخانها في فضاء الغرفة غارقًا في كيفية إقناع كل صاحب أرض بالتنازل دون الدخول في مواجهات حقيقية.

ومع نهاية عمر السيجارة، استقبلتها المطفأة كمقبرة تليق بها، وأطفأ العمدة نور الغرفة، وغرق في سبات عميق.

■■■

انتشـر الخبر في القرية كما تشـتعل النار في الهشـيم، بعدما غادر العمـدة حافـظ الشـيباني دار الحاج شـاهين صقـر، وانشـغل الكبار والصغـار فـي مناقشـة قيمـة التعويـض الذي تنـوي الحكومـة دفعه لأصحاب الأراضي، سـخر الجميع من قيمة التعويض التي تسـاوي 10 % من قيمة الأرض.

تضخمت الواقعة كعادة الأخبار في بلادنا تأكل من ألسـنة الناس، فتزيد حجمًـا وتتغير ملامحها. عند منتصف الليل كان الحشاشـون، ومدمنو السـهر على المقاهي، يرددون أن الحاج شـاهين صقر طارد العمدة حافظ الشيباني ببندقيته حتى باب الدار، وانشغل الكثيرون في وصف كَمِّ الفزع الذي كسـا وجه العمدة، بينما انهار البعض ضاحكًا على تخيل منظر الشيباني جاريًا في خوف.

بينما لـم يجد حافظ مكانًا يضمه وتهدأ فيه أعصابه بعدما وصلت الشـائعات إلـى عقر أذنه، إلا بيـت عفاف، فزارها للمـرة الأولى بعد منتصـف الليل، اسـتقبلته مندهشـة، وقابلها بوجـوم غاضب، دار في البيت يفتش عن زائر الليلة.

ابتسمت في خبث وعادت لأريكتها المفضلة مستمرة في تمشيط شـعرها الذهبـي الطويـل، زام العمدة مرات ومرات فـي أرجاء الدار قبـل أن يعود ليقف متأملًا عشـيقته في ضوء ذلـك المصباح الخافت المعلق خلفها، حيث نسجت أضواؤه الصفراء مع شعرها الثائر على أثـر التجفيف بعد حمام سـاخن صورة شـمس كسـولة أتاها الصباح بينما تأبى الشروق الكامل، تخطو خطواتها الأولى نحو السماء.

توقفت عفاف عن تمشيط شعرها والتوت شفتها السفلى متعجبة.

- مالك يا عمدة مش على بعضك ليه؟

بدا حافظ وكأنه لم يسمع ما قالت، واستمر محدقًا فيها، بعدما ذكرته الشمس بصباح الغد، وتلك المعارك الواجب عليه خوضها من أجل التنازل عن الأراضي.

تهاوى من ثقل الحمل على أقرب المقاعد إليه، وزفر زفرة طويلة، أطلقت ضحكة عفاف الرقيعة الساخرة من عقالها، فالتفت إليها في غضب:

- ما تتلمي ياولية، خَالْيَة يعني النهارده؟

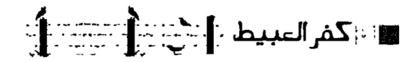
ألجم ضحكتها غضب العمدة وصراخه العالي فيها، فقالت:

- الإكس يا كبير، الدورة والا تزعلك دي كمان.

لم يشعر العمدة بنفسه إلا وهو بارك فوقها على الأريكة يصفعها صارخًا:

- تزعلك انتي وبلدك الوسخة كلها من كبيرها لصغيرها.

ثم غادرها لاعنًا أهلها وسلسالها وكل أهل القرية في صخب حجبه صوت الباب العالي في الارتطام عند الإغلاق، بينما انكمشت عفاف في مكانها كما اعتادت منذ صغرها عندما تتلقى الضربات



المختلفـة مـن والدها، بينما تواسـي دموعها جسـدها المنكمش في صمت تام.

■■■

أعاد العميد ضبط وضع البيريه الذي يرتديه على رأسه أمام المرآة للمرة الخامسـة في أقل من عشر دقائق، قضاها في غرفة مدير مكتب الوزير، الذي استدعى مدير إدارته وقائد العملية للاطمئنان على آخر الترتيبـات، وحرص قائده علـى اصطحابه تحسـبًا لأي طارئ، بينما تعشـم هو في قرارة نفسه أن يحتاجه القائد ليري الوزير مهارته، لينال الحظوة.

يعلم جيدًا أن وزيره لا تشغله المهارة مثل الانتماء، يعرف تاريخه جيـدًا، وكيف تولى الوزارة بعد قيادته للحرس الجمهوري، وعلاقته الجيـدة بالسـيدة الأولـى، وكيف حصـل على على رتبة مشـير، تلك الرتبة التي لا تمُنح إلا لأصحاب البطولات الفذة والأعمال العسكرية المبهرة في الحروب، ونالها سـيادته على يـد الرئيس لإعجابه حينها بالعروض التي تقدمها القوات المسلحة في احتفالات النصر، ليكون بذلـك أول مشـير في العالم «فيلد مارشـال» يحظى بتلـك الرتبة عن طريـق الاحتفـالات، لا الحـروب، على الرغـم من تعطـل التدريب بالوحدات المشـاركة والكليات العسـكرية لأكثر من 3 شهور طيلة 3 أعوام من أجل تلك العروض.

ومن خلال وجوده كقائد عام للقوات المسلحة، كيف قام بتعديل قانون الخدمة وزيادة عدد سنوات الخدمة في كل رتبة، وابتكر قانونًا لتحويل عدد كبير من الضباط إلى سن المعاش عند الترقي لرتبة عقيد، متجاوزًا عن عرف امتد لمدة تزيد على 50 عامًا قبله بالترقي طبقًا للوحدات القتالية التي يقودها الضابط، ليحال مئات الضباط للمعاش وهم في سن الـ 40، كذلك اعتمد المشير على رجاله الذين خدموا معه خلال مشواره العسكري متجاوزًا عن شرط الكفاءة والتفوق، بعد استبعاد عدد من الكفاءات تحت شعار «الولاء والانتماء أهم من الكفاءة».

قطع حبل تفكير العميد أثناء تأمله لوضع البيريه في المرآة سؤال جندي السكرتارية عن المشروب الذي يفضله، فردَّ في خجل:

- أي حاجة سخنة؛ شاي مثلًا.

ابتسم مدير مكتب الوزير المنشغل بإجراء العديد من المحادثات الهاتفية، وأشار للجندي بتنفيذ طلب العميد الذي عاد إلى غطاء رأسه، والمرآة التي احتلت الحائط الذي أمامه وحبل أفكاره.

تخيل نفسه عارضًا الخطة على الوزير، مبديًا بعض الملاحظات التي أخفاها عن قائده لتكون ذخرًا له في موقف كهذا، مبديًا تفهمه لتعليمات الوزير موضحًا أهميتها وقيمتها العليا.

وقبل أن يأتيه الشاي، وأن تذهب به أحلامه لأعرض من هذا،

غادر قائده مكتب الوزير على عجل، مشيرًا له أن يتبعه في حزم، جعله ينتفض مغادرًا مقعده دون أن يلقي التحية على مدير المكتب، تابعًا القائد بينما مال البيريه على جانبي رأسه فيما يشبه خوف جرو من غضب سيده.

أنهى حافظ الشيياني إفطاره بصحبة ضباط الشرطة العسكرية مبديًا الكثير من التكلف في خدمتهم التي لم يعتدها أهل الدار، ثم غادرهم ليعود إلى غرفة أخرى في الجانب الشرقي للمبنى نفسه.

اشتهرت تلك الغرفة فيما سبق بغرفة «التعليق» حيث كان أجداده الأوائل يحبسون فيها كل فلاح تطاول على رجالهم، أو غالط محاسيبهم، أو تكاسل عن خدمتهم، بعد أن يعلقوه في سقفها لعدة أيام.

أعاد أبوه طلاءها وفرشها بالعديد من الأرائك «الأسيوطي»، ومكتب خشبي في نهايتها لتكون مكتبًا للعمدة، بينما ظلت حلقات التعليق في السقف بارزة وشاهدة على التاريخ.

لم يستخدمها تقريبًا منذ توليه العمودية إلا في جلسات الكيف مع ضباط المركز وشيخي البلد وأقاربه، لكنه لم ينس أبدًا كيف علق فيها أحد خدمه عقابًا على سرقته.

ولكنه اليوم قرر استخدامها واستدعى أصحاب الأراضي إلى دواره، واحدًا تلو الآخر، بعدما أدرك خطأه في زيارتهم في منازلهم، والذي تطور إلى شائعة يعلم أنه لا يستطيع القضاء عليها.

اقترب ميعاد المالك الأول، فاستنجد حافظ الشيباني بحلقات التعليق محدقًا إلى سقف الغرفة، كي تعينه على هذا الابتلاء.

ومع استواء الشمس على عرشها النهاري في الظهيرة كانت المفاوضات قد انتهت بالفشل والرفض للتنازل عن الأرض وقيمة التعويض، رفض العمدة انصراف أيٍّ من الرجال الأربعة عشر ثم جمعهم في النهاية ليصلُّوا الظهر جماعة قبل حلول صلاة العصر.

وبعد أن أقام الصلاة وانشغل الجميع بالوقوف أمام الله، علت صرخة لترج أركان المنزل، حاول الجميع التركيز في الصلاة، إلا أن توالي الصرخات مع اقتراب صوت الأرجل الجارية المذعورة خلفهم جعلهم يتململون في الصلاة.

في النهاية نهض الجميع من سجدتهم الأولى ليروا ضابطًا برتبة نقيب يضرب أحد خدم العمدة بكلتا يديه، قبل أن يخرج صاعقًا كهربيًّا ليصعقه مرة واثنتين، ليتلوى الخادم مصدرًا عواء يشبه عواء حيوان جريح قبل أن يسرع العمدة في ركوعه ثم سجوده، ليخفت الصوت تمامًا مع السجود.

شل الموقف رءوس المصلين في ساحة الدار، نسي أغلبهم التسبيح، وحرصوا مع رفع رءوسهم لقراءة التشهد على متابعة الضابط الذي أشعل سيجارته، بينما وضع بيادته العسكرية الضخمة في صدر الخادم الغائب عن الوعي.

وقبل أن يكبِّر العمدة للعودة إلى الوقوف في الركعة الثالثة، نهض أغلبهم مع صرخة الضابط على أحد جنوده، لحلاقة شعر الخادم الذي خالف التعليمات العسكرية وحبسه في إحدى غرف الدوار.

مع حلول المساء، اجتمع أطفال القرية أمام الحائط الشمالي للمسجد الشرقي، ودارت بينهم المناقشات حول اللعبة التي يريدون ممارستها في تلك الليلة، في النهاية استقر الفريق الأكثر والأكبر سنًّا على لعب «عنكب شد واركب».

قرَّر طه أن يكون «عمود» اللعبة، واحتل مكانه موليًا حائط الجامع ظهره، بينما انحنى أول الأطفال أمامه فيما يشبه وضعية الركوع ممسكًا بوسطه، وتلاه من وقف خلفه منحنيًا وممسكًا بمن سبقه، حتى كونوا سلسلة من سبعة أطفال.

بينما استعد الفريق الآخر بالرجوع للخلف عدة أمتار استعدادًا للقفز وامتطاء ظهور الفريق المنحني.

أشار طه إشارة البدء، وجرى الفريق الثاني لامتطاء ظهور الفريق الأول، الذي تحمَّل قفزات الآخرين متماسكًا، فإما أن يسقط ويخسر فريقه، وإما أن يسقط الآخر من على ظهره، إذا نجح في امتطائه ويكسب فريقه.

ابتسم الشيخ عبدالله الذي تابع صخب الأطفال ولعبتهم المختارة خلال توجهه إلى منزل الحاج شاهين صقر، الذي استقبله على باب الدار، ليعاود دليله الصغير «طه» مشاركة الأطفال لعبهم المسائي.

قاد الحاج شاهين الشيخ إلى «المقعدة» حيث انتظره العديد من ملاك الأراضي، ومعهم ولده حمد وصديقه خالد، والذي عاد من القاهرة مصطحبًا صديقه بناء على دعوة الوالد لأمر عاجل.

شل حضور وجلال الشيخ عبدالله اللغط الدائر في الغرفة منذ بداية الاجتماع، وهدأت الأصوات لتسمع الشيخ الذي كان على علم بكل ما يدور في قريته خلال اليومين السابقين.

روى في إيجاز ما يعرفه، مطالبًا الحضور بإضافة ما يغيب عنه من معلومات، وبمجرد أن انتهى، انبرى خالد البدري في الحديث باندفاع أدهش الجميع.

– فجر يا مولانا، العمدة بعت شيوخ البلد للدور يحذروا من إن الشرطة العسكرية حتتعامل مع أي رافض للتنازل زي ما اتعاملت مع الواد بيومي التمللي بتاعه.

أشار الحاج حمد في غضب لخالد بالصمت ثم استطرد:

– العمدة يا مولانا باعتلنا رسالة إن الموضوع مش بإيديه وهو شخصيًّا خسران فدانين في التنازل ده، وإن اللي مش حيتنازل النهارده بكرامته وياخد التعويض، حيتنازل بكره وهو في السَجن الحربي وياخد على قفاه.

استعاذ الشيخ عبدالله من الشيطان الرجيم بعد أن توقف عن التسبيح الذي لم ينقطع خلال استماعه للحضور، ثم همس:

– عنكب شد واركب.

هتف الجميع في آنٍ واحد مستفهمين:

- هه؟

- ابتسم الشيخ ثم قال:

أرضكم عرضكم، الفلاح اللي بيبيع أرضه بتمنها كنا زمان بنعايره، لحد ما صار البيع عادي، دلوقتي عايزنكم تتنازلوا بعشرة في الميه من تمن الأرض، بحجة مصلحة الوطن، وانتم عايزين تسمعوا رأيي، وأني بكل اللي درسته في الأزهر وفي كتاب ربنا بقولكم الوطن اللي ميعرفش قيمة الأرض وعرق الفلاح وجدوده اللي رواها من زمان الزمان، ميبقاش وطن، وتبقى مصلحته مصلحة اللي حاكمينه، واللي لو عايزين أرض للجيش يروحوا الصحرا القريبة حيلاقوا كتير، إياكم تسيبوا أرضكم، اللي حيفرط فيها، الجنة حتفرط فيه.

■■■

انشغل فلاحو القرية الذين يعملون باليومية في السخرية من الصراع الدائر بين العمدة ومجموعة من الأعيان وملاك الأراضي الزراعية، وسرعان ما تداول بعضهم النكات حول تلك الواقعة التي كانوا يشعرون من قرارة أنفسهم أن لا دخل لهم بها، وأن الأغنياء يأكلون بعضهم بعيدًا عن فتات موائدهم.

وارتفعت الضحكات في أحد مقاهي القرية حين قام أحد الشباب ليقول:

- بيقولك العمدة قبل ما يدخل فرشته سأل جماعته..تتنازلي يا وليه، قالتله اختشي يا راجل ما انا اتنازلت ليلة الدخلة.

ارتفعت الضحكات لتختلط بكركرة «الجوزة» ونداء صبي المقهى على الطلبات، بينما استمر الآخرون في تبادل القفشات والنكات دون توقف.

في الوقت ذاته كان خالد البدري واقفًا يتأمل وجه أمينة الذي احتلته حمرة الخجل، حين تعثرا في بعضهما البعض في حديقة منزلها وهو يغادره في منتصف الليل.

عجز خالد عن منع ذلك الدبيب المميز لقلب رقص في حضرة الحبيب بل انتشى به وترك تلك الرقصة تصل إلى وجهه عبر ابتسامة عريضة، أجبرت أمينة على الابتسام هي الأخرى.

- وحشتيني يا أمينة.

عاد الخجل ليحتل مكانه في وجه أمينة مع تسلل تلك الحروف الهامسة من فم خالد.

فأسرعت لتغادره هامسة هي الأخرى.

- أبويا الحاج من ساعة ما سابكم وهو بيتكلم عنك ويقول: خالد راجل جدع.

لم يشعر بنفسه إلا وقد أمسك يدها ليمنعها من الانصراف

سكنت أمينة للحظة قبل أن تفلت يدها معاتبة:

- خالد.

ثم انسلت عائدة إلى الدار، بينما توقف هو قليلًا ليستنشق عبق زهور مسك الليل التي أحاطت بمدخل دار آل صقر، ثم أشعل سيجارته متجاهلًا ذلك النقيق الليلي لصراصير الغيط والذي بدا له في تلك اللحظة كفرقة موسيقية تعزف كونشرتو السعادة.

لم يتجه إلى داره مباشرة وترك قدميه تقودانه دون هدف منشود، اقترب من الترعة ، فجلس على ضفافها ملقيًا بحجر في الماء، شاهد على الجانب الآخر في قرية «صهايرة» فلاحًا يسب موتورًا للماء عجز عن تشغيله لري الأرض، بدا بمصباحه الكهربي كبقعة مضيئة في ثوب الليل الأسود.

انسحبت عين خالد لمتابعة الحلقات التي تنتج عن قذف الطوب، قبل أن يجذب انتباهه «برطمة» شخص غاضب يحرص على كتمها بينما تعلن خطوات أقدامه الغاضبة ذلك بوضوح عند ارتطامها بالأرض.

تراجع خالد بفضول توارى حتى لا يراه الغاضب الليلي، بينما مر به الحاج سعفان المتولي مرددًا:

- أيام ما يعلم بيها إلا ربنا، حتى عفاف عندها الدورة، نلاقيها منك ولا من الشيباني ولا من الجيش يا قلة المزاج.

كتم خالد ضحكته، ثم تركها تذوب مع ارتفاع صوت موتور المياه الذي استجاب أخيرًا على الضفة الثانية، ثم قرر العودة إلى منزله.

تباطـأت قدماه قليلًا عنـد منزل عفاف، والذي بـدا في ثلث الليل الأخير وكأنه وحش من وحوش حواديت الأطفال يستعد للعودة إلى قلب الترعة لمبيت ليلته.

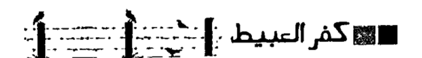
أدهشه ذلك الظل الآدمي على سطح المنزل، لعفاف وهي تمشط شـعرها لتبدو وكأنها جنية من الأسـاطير، ابتسم لخاطر النداهة الذي ألح به، ثم شعر بالخجل لأنه شعر أنها تراه، فانصرف مسرعا مستغفرًا أمينة في خياله، بينما ابتسـمت عفاف على سطح منزلها وهي تلاحظ انصرافه وقالت في هدوء.

- لسه والله البلد فيها رجالة بتتكسف.

■■■

لـم يهنأ صباح اليوم الجديد بتفاصيل الصباحات المعتادة في كفر «العبيط» حيث تبادل الجميع في دهشة خبر توقيع صبحي أبو سمعان على أوراق التنازل عن خمسة أفدنة لصالح الحكومة وحصوله على التعويض.

لجأ الكثيرون إلى شـائعة تريح بالهم عن سـر هـذا التوقيع، خاصة مع تغيبه عن لقاء أمس الذي جمع الملاك مع الشيخ عبدالله في دار آل صقر، ولجأ البعض إلى التفسير الأسهل والأقرب إلى قلوبهم قائلين:



– قبطي جبان يبيع أبوه.

ولم يعرف الكثيرون أن صبحي قد باع فدانين آخرين يملكهما في ناحية أخرى للعمدة بسعرهما الأصلي عازمًا على الانتقال للمركز للعودة إلى العمل في تجارة الحبوب والتي جمع منها ثروته التي حاز على إثرها تلك الأراضي لزوم الوجاهة الاجتماعية.

بينما كان حافظ الشيباني الذي لم ينم بعد التوقيع على هذا التنازل فجرًا من فرط السعادة، التي شغلته عن تناول إفطاره للمرة الأولى، يجري اتصالاته الهاتفية لإبلاغ مدير الإدارة بالحصول على التنازل الأول، بينما كان الشيخ أبو حيان على باب الغرفة الملحقة بالمسجد يودع شابين من أتباعه قائلًا:

– نصر من الله وفتح كبير.

أنهى اللواء مدير الإدارة وقائد المهمة اجتماعه الأخير مع العميد ليبلغه بآخر تطورات الموقف، والتوقيت المحتمل لبدء العملية، ليستعد هو الآخر بدوره لعمل «حساب الوقت» واتخاذ الإجراءات اللازمة.

وبمجرد انصراف العميد، أعطى اللواء تعليماته إلى مدير مكتبه لتجهيز سيارته سريعًا.

وأثناء مغادرة الإدارة كان اللواء يطمئن على وصول العمدة حافظ الشيباني إلى دار المدفعية، معطيًا تعليماته لمدير الدار باستقباله في مكان خاص بعيدًا عن ضجيج الزوار.

انتفض العمدة واقفًا بمجرد دخول اللواء عليه، وحمل وجهه الدائري ابتسامة خاصة استعملها كثيرًا مع مأمور المركز، بينما حمل وجه اللواء غضبًا واضحًا، ألجم تلك الابتسامة وأعادها إلى «سيالة» جلباب العمدة.

تجاهل اللواء مصافحة اليد التي امتدت لتسلم عليه، واحتل مقعده قائلًا في حزم:

- فات أسبوع يا عمدة من ساعة أول توقيع، ومن ساعتها شكرًا، خمسة فدادين من أربعين وبعدين!

عجز العمدة عن ابتلاع ريقه الذي تجمد من الخوف، ثم أخرج بعض الأصوات غير المفهومة بحثًا عن عذر ما، ليقاطعه اللواء:

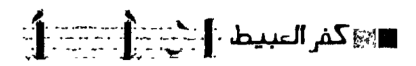
- كل اللي بيحصل عندك في البلد، إن الناس بتريق عليك أكتر، خاصة إنك معرفتش تخللي حد يتنازل غير الراجل المسيحي اللي هددتوه بحرق البيت وخطف ولاده.

اتسعت عينا العمدة في دهشة وقال رغمًا عنه:

- ما شاء الله سيادتك عارف كل حاجة.

عبثت أصابع اللواء بمجموعة أوراق كانت بجواره على المنضدة، متجاهلًا دهشة العمدة والنظر إليه.

- إنت محتاج قوة صح.



- صح يا باشا.

نهض اللواء استعدادًا للانصراف.

- إنت حترجع بكره الصبح ومعاك سرية شرطة عسكرية وسرية صاعقة ومجموعة من المدنيين، عايزك تدخل البلد الضهر ومحدش من أهلها ميشوفكش معاهم.

ثم مد يده مسلمًا ليعاود العمدة الانتفاض مرة أخرى مسلمًا بكلتا يديه، ومحنيًا رأسه للكرم الذي لم يتوقعه، متأملًا اللواء عند ابتعاده ويداه تمسحان بعضهما في انتشاء وسعادة وهو يقول:

- خلصت يا كفر.

■■■

الفصل الرابع

لم تتوقف الحكايات والشائعات في القرية لمدة ثلاثة أيام، منذ وصول العمدة بصحبة الحشد العسكري الكبير، كذلك انشغل الكثيرون بهيئة ضباط الصاعقة، وذلك القناع الذي يرتدونه على وجوههم، وعلى الرغم من أن احتلال الشرطة العسكرية لمحطة السكة الحديد لم يصب الأهالي بالقلق، فإنه أصاب الأطفال عند إنشاء نقطة شرطة على حائط المسجد الذي استخدموه كـ«أمة» منذ تعلمت أرجلهم السير، وهو ما منعهم من اللعب لمدة يومين كاملين للتشاور حول مكان جديد.

وفي النهاية، واستغلالًا للوقت الذي يعاند في المضي مع من يحسبونه، استقروا على لعب « الطاقية في العب» بجوار نقطة الشرطة الجديدة، وجلس فريقا اللعب في مواجهة بعضهما البعض بينما وقف طه ممسكًا بالطاقية في مواجهة فريقه، اختاروا طه صبي الحلاق هذه المرة بحكم وظيفته، بينما حرص هو على السير بجوار

أفـراد فريقه، والانحناء بجوار كل واحـد موحيًا بوضع الطاقية، حتى أخفاهـا فـي صدر طه ابن العمدة وكان ترتيبـه الرابع في صف يتكون من سبعة أطفال.

ردد لاعبو الفريق الآخر أسـماء مـن يتوقعون وجـود الطاقية في «عبهـم» ولكنهم أخطئوا الاختيار، وكانوا عادة لا يميزون ابن العمدة لأنه لا يلعـب معهم كثيرًا، وبهذا اقترب الفريق الفائز بضعة أمتار من نقطة الشرطة العسكرية.

وهكذا استمرت اللعبة طوال الليل، بينما تبدلت خدمة الشـرطة ووقـف الجنـدي يراقب الأطفـال في ملـل، حتى وصـل الفريق إلى الحاجـز المعدنـي المطلـي بالأحمـر والأبيض وصـرخ أعضاؤه في سـعادة معلنين الانتصار، بينما أسـرع الجنـدي ليبعدهم عن الحاجز في غضب.

توحد الفريقان للمرة الأولى هذه الليلة، وتفرغوا لسباب الجندي بوالدته وأهله، مشـيرين له بحركات كانوا يؤدونها بأيديهم، حتى فرغ صبره وبادلهم السباب.

قذفـوه بالطوب فتعاون مع زميلين لـه في الخدمة على إعادة قذفهم بالطوب، حتى تحولت سـاحة المسجد إلى معركة صغيرة، أنهاها ملل الأطفال من ممارسة لعبة خطيرة، وانصرفوا إلى ديارهم، تاركين خلفهم ثلاثة جنود مصابين، ما بين مصاب في جبهته، وصدره، وفي قدمه.

■■■

أبدى كبار القرية قبل صغارها استياءهم الشديد من العقاب الذي وقعه العمدة على بعض الصغار البسطاء، الذين عادوا لأهاليهم تحمل ظهورهم علامات الجلد بالسياط، مما شغل القرية بأكملها عن ذلك السور الذي أقامته وحدة الصاعقة حول الفدادين الخمسة المتنازل عنهما مسبقًا.

لكن هذا لم يفت الشيخ عبدالله شحاتة، والذي خصص خطبة الجمعة للحديث عن إثم تبوير الأراضي الزراعية من أجل أي غرض آخر، واصفًا أصحاب تلك الفعلة بـ«تتار» العصر، متوعدًا إياهم بعذاب عظيم، وهو ما تسبب في قيام ملاك الأراضي المجاورة للأفدنة الخمسة بتأجير بعض الرجال لحراسة الأراضي، التي لم يلبث ووقع خلاف بين الحاج مصطفى المنسي وقائد سرية الصاعقة بسبب تعدي رجاله على جزء من أرضه وضمها ضمن السور، وهو ما قوبل بعنف شديد من ضابط الصاعقة الذي طرده من الأرض ومنعه من الاقتراب مرة أخرى من السور مهددًا إياه بإطلاق النار عليه.

اجتمع ملاك الأراضي مرة أخرى في دار شاهين صقر، ولكن بدون الشيخ عبدالله هذه المرة، وخلال اجتماعهم وصلهم خبر قطع المياه منذ الغد عن الأربعين فدانًا بالكامل، حيث تصل مجموعة هندسية تابعة للقوات المسلحة مكلفة بتحويل مجرى الترعة المغذية للأراضي بدءًا من الصباح.

انتفض الرجال ما بين ساب وملوح وغاضب، حتى أمرهم شاهين صقر بالصمت متسائلًا:

- والعمل يا رجالة؟! هما عايزين يولعوها نار!

رد أحدهم في غضب:

- يبقى تولع.

فأجاب شاهين:

- إحنا مش قدهم يا رجالة، والنار لو ولعت حتاكلنا احنا.

رد آخر:

- نقدم شكوى في المركز.

فأجاب أحدهم:

- والبوليس ما يقدرش على الجيش.

صمت الجميع قبل أن يسأل شاهين صقر:

- طب والعمل؟!

قطع حديثهم صوت طرقات على باب الدار، أسرع بعدها الحاج شاهين لمعرفة الطارق، دخل حمد وبصحبته خالد وعبدالعزيز وبعض شباب القرية معلنين رغبتهم في الاجتماع بكبار بلدتهم.

استقبل الكبار شبابهم في فتور، بينما أعمى حماس الشباب عيونهم عن الإحساس بهذا الفتور وتحدث خالد قائلًا:

- لو بكرة حوِّلوا الترعة، لازم نجهز مصدر تاني للري.

وقبل أن يقاطعه أحد الكبار، فرد شاب آخر خريطة مرسومة باليد، وأشار:

- نقدر نأجر شوية آلات من بكره الصبح ونمد من الرَّياح ترعة صغيرة تروي بقية الأراضي.

ابتسم الحاج صقر شاهين ابتسامة ساخرة وقال:

- يا ولدي ما هما حيسدوها هي كمان تاني يوم.

طوى حمد الخريطة وهو ينظر إلى أبيه قائلًا:

- يابا هي معركة نفس طويل، ونفسنا لازم يبقى طويل.

اتسعت ابتسامة الحاج شاهين فخرًا بولده هذه المرة، ثم نظر إلى رفاقه الملاك قائلًا:

- مين موافق على الحل ده؟

لم يعلن أحدهم موافقته، بل قام أحدهم ليستأذن في الانصراف وتبعه آخرون في ضيق واحد قبل أن يعلن أحدهم:

- مش ناقص غير نمشي ورا كلام الصغرَّة.

أفسح الشباب مجالًا للراحلين دون أن يرد أحدهم على ما يقال احترامًا لصاحب الدار، حتى انصرف الجميع ولم يبق سوى الحاج شاهين الذي قال:

- عندكم حلول تانية يا ولاد.

اندفع الشباب في طرح الحلول بحماس حتى تداخلت أصواتهم صانعة جلبة وصخبًا كبيرًا، فصرخ الشيخ شاهين قائلًا:

- اقعدوا يا ولاد، وصِّلنا على الشاي يا حمد.

■■■

أصاب اعتذار قائد الشرطة العسكرية علىَ منبر المسجد القبلي لأولياء أمور الأطفال الذين تم جلدهم في دوار العمدة ارتياح الكثيرين من أهل القرية، الذين رأوا في هذا مؤشرًا على احترام القوات المسلحة ورغبتها في أن يعم السلام والوفاق أرجاء القرية.

بينما فجر الاشتباك الأخير بين رجال الحاج مصطفى المنسي وقوات الصاعقة الغضب، بعد تلك الجلسة التي جمعت قائد السرية مع الحاج مصطفى في غرفة الشيخ أبو حيان، والتي وعد فيها قائد السرية بمراجعة خرائطه والتأكد من إحداثيات الأراضي، وهو ما لم يتم على الرغم من مرور الأيام، فاضطر الحاج مصطفى إلى إصدار الأمر لرجاله بهدم السور السلكي واستعادة الأرض، وهو ما قوبل بعنف شديد من قوات الصاعقة التي أوسعت الرجال ضربًا، واعتقلت ثلاثة منهم.

وبات أهل القرية في حيرة من أمرهم، خاصة بعد اختفاء العمدة حافظ الشيباني في داره، واحتجابه عن الناس، تاركًا القرية تضرب أخماسًا في أسداس، حتى إنه رفض طلب بعض الملاك بلقائه متحججًا بانشغاله في أمور خاصة به.

وانتظر الجميع لصباح يوم الجمعة للقاء العمدة للاستفهام عن وضع الجيش في القرية بعدما ادعى شيخا البلد عدم معرفتهما بالأمر.

وما بين مهتم وخائف، أو غير مهتم، استغل سعفان المتولي احتجاب العمدة ليزور عفاف للمرة الأولى في ليلة الخميس، تلك الليلة التي خصصتها للعمدة منذ سنوات طويلة.

تجاهل دعوات أهل البلد لشرب القهوة أو الشاي، ومضى في طريقه مدندنًا لحنه المفضل، دون أن يشعر بمن يتبعه، وبمجرد وصوله إلى الدار المنعزلة عن القرية طرق الباب بقوة طالبًا الدخول، أسرعت عفاف لتفتح الباب متسائلة عن الطارق.

فوجئت بابتسامة سعفان العريضة التي تخطت عرض الباب، سألته في دهشة:

- إيه اللي جابك يا شيخ البلد؟ العمدة زمانه جي.

تخطاها سعفان إلى داخل الدار ضاحكًا بسخرية:

- حافظ زمانه نايم في حضن العسكر، ممنوع من الخروج.

أغلقت عفاف الباب وسألته:

- يعني إيه؟

مد سعفان يده ليلتقط حبة من عنقود العنب الموجود على

المنضدة قبل أن يجلس على الأريكة المقابلة ويقضمها بتلذذ واضح دون أن تغادره ابتسامته.

- أوامر العسكر يفضل في الدار ميشوفش حد ومحدش يشوفه.

- ليه؟

- بكره تعرفي يا هند يارستم.

ابتسمت عفاف للمرة الأولى منذ قدوم سعفان واقتربت منه قائلة:

- ومين حيقول لهند غير حسين فهمي ذات نفسه.

التقفها سعفان في حضنه غائبًا في قبلة طويلة احمرت لها خدوده البيضاء من فرط الإثارة قبل أن تفلت نفسها منه.

- كفاية كلام بقى يا عفاف خلينا ننبسط.

نهضت عفاف مبتعدة للوراء في دلال واضح وهي تخلع عنها قميصها وتقول وهي ممسكة بشعرها الذهبي:

- والقصاقيص دول ما حتلمسني غير لما أفهم الحكيوة بالظبط.

■■■

غادر سعفان المنزل بعد أن أفرغ كل ما في جعبته من أسرار، وبعدما أرضى رغبته المكبوتة منذ فترة، ربت على صدره بفخر، مستعيدًا تأوهات عفاف على الفراش وصراخها طلبًا للرحمة،

اتسعت ابتسامته التي لم تغب، بل زادت بفعل الأفيون الذي مازال أسفل لسانه، ولم يفلح مع مرارته العنب ولا شفاه عفاف وريقها الذي ارتشفه من خلال القبلات، ولكن قبل أن يصل إلى أول الطريق المعمور، فوجئ برجال ملثمين يقطعون عليه الطريق، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة، أو يخرج مسدسه المحشو من تحت باطه، انقضوا عليه وكمموه، قبل أن يتلقى ضربة على رأسه غيبته عن الوعي فورًا.

وفي الصباح وأهل القرية يستعدون لصلاة الجمعة، فوجئ الجميع برجال الشرطة من المركز يجوبون القرية ويفتشون بيوتها بيتًا بيتًا بحثًا عن شيخ البلد المختفي، وكالعادة لعبت الشائعات دورها المعتاد في سماء القرية، وقال قائل: إن رجال نبيل المنسي قد قتلوه، بينما ادعى آخر أنه عبر قرية «صهايرة» للنوم مع زوجة أحدهم وتم اكتشافه وقتله في فراش الزوج المخدوع.

وصل العمدة إلى الصلاة مع رفع أذان الإقامة ليدخل إلى الصف دون أن يسمع الخطبة، وبمجرد انتهاء الصلاة، اعتلى المنبر مستأذنًا من الشيخ أبو حيان ليقول:

– يا أهل الكفر، الحاضر يبلغ الغايب، أخويا وصاحبي الشيخ سعفان المتولي انخطف واللي خطفوه رجالة صهايرة، من النهارده رجالة جيشنا فارضين حظر تجول من بعد صلاة العشا لحد صلاة الفجر، اللي حيخرج من بيته أنا مش مسئول عنه، لحد بس ما يرجعوا سعفان.

ارتفعت أصوات المعارضين لحظر التجول، والمتسائلين لتقاطع العمـدة الـذي ألقى بالميكروفـون وهبط من على المنبـر ليلتقطه أبو حيان مطالبًا الحضور باحترام قدسـية المسـجد أو مغادرته، وقبل أن يلحق بعضهم بحافظ الشـيباني، قفز في سيارة شرطة عسكرية وغادر الجميع.

■■■

أدى اللواء التحية العسـكرية للمشـير عند بـاب المكتب، قبل أن يدعـوه للجلوس حتى ينتهي من الأوراق التي بين يديه، جلس اللواء ليتأمـل وزيره عن قرب للمرة الأولى منذ زمـن بعيد، تذكر رغمًا عنه امتـداد اللـون الأصفر فـي كل مكان، ولا يكسـر حدته وملله سـوى تلك السماء الزرقاء، التي عبثت بها شمس الظهيرة وأحالتها بمعاونة رمال الصحراء إلـى زرقة مصفرة، مريضة، وهو يجر قدميه جرًّا، غير قـادر على رفعهما عن الأرض، متشـبثًا بزمزميته وذلـك الماء القليل بداخلها، يدرك هذه المرة أن الانسحاب والعودة مختلفة.

في يونيو 67 مشـى لمسـافة أكثر مـن 300 كم مهـددًا بالموت بين لحظـة وأخـرى، تحرقه شـمس يونيـو حين ينام مسـتترًا عـن طيران العـدو، ويخنقـه ظلام الليل الذي عـاد فيه إلى الضفـة الغربية للقناة، مـع الآلاف العائديـن الذيـن قهرهم قرار انسـحاب عشـوائي قبل أن يقهرهـم العـدو، أما اليـوم فهو يعود وحيـدًا بصحبة رئيـس عمليات كتيبتـه ، الذي يسـتخدمه عـكازًا حين تخونـه قدماه، ينعـي ما حدث أمامه دون خجل.

ولكن هذه المرة في عام 73 كان يعلم أن المسافة لن تزيد على 3 ساعات من السير، حتى يعود للضفة الغربية للقناة، الجيش منتصر هذه المرة، ولكنه ينسحب، بعد أن خسر كتيبته بالكامل مع نفس الضابط ولكن تحت قيادته هذه المرة ، فشلت الكتيبة في تأمين الجانب الأيمن للجيش الثاني الميداني، واخترقته الدبابات الإسرائيلية، وعادا سويا مرة أخرى، لتمضي الأعوام ويصير قائده وزيرًا ويعينه مديرًا لإدارة.

قطع حبل ذكرياته تساؤل المشير:

- سرحان في إيه يا سيادة اللواء؟

اعتدل جسده رغمًا عنه وابتسم فورًا وقال:

- مفيش يافندم.

نهض المشير بقامته الطويلة مشيرًا بإصبعه إلى مرءوسه:

- اعمل حسابك الوحدة تخلص وتتبني قبل شهر 10 علشان نفتتحها مع سيادة الريس في أعياد النصر، ومش مستعد لقبول أعذار.

نهض اللواء مؤديًا التحية في حزم شديد:

- تمام يا فندم حيحصل.

أشار له المشير بالانصراف، فدار على كعبه في حركة عسكرية

ضاربًا الأرض بقدمه وكأنه طالب في الكلية الحربية تعلم السير بالخطوة العسكرية للمرة الأولى.

غادر المكتب مستعيدًا ذكرياته في سيارته التي تعود به إلى الإدارة.

يتذكر في صباح يوم ما خلال الحرب كيف أصابه الهلع، بمجرد رؤية أكثر من 400 جثة لشهداء كانوا يومًا أفرادًا وضباطًا في كتيبته، تحسس البعض، والبعض الآخر بحثًا عن حي، تجمد قلبه إلى الأبد من مصافحة وجوه الموتى، قرر العودة للضفة الغربية للقناة وفي أذنه يتردد بلاغ أتاه عبر جهاز اللاسلكي منذ عدة ساعات ، لم يعره اهتمامًا ساعتها « من فهد إلى نسر هناك 7 دبابات إسرائيلية تتقدم في الجانب الأيمن من قطاع مسئولية الكتيبة، حوِّل».

عرف بعدها أن قوات المظلات الإسرائيلية قامت بالوصول للمواقع المتاخمة لمياه قناة السويس وعبرت القناة في قوارب مطاطية، ثم قامت قوات القائد الإسرائيلي «برن» بالهجوم على ثلاثة محاور؛ المحور الأول شمالًا للضغط على الحد اليمين للجيش الثاني الميداني، و المحور الثاني جنوبًا للضغط على الحد اليسار للجيش الثالث الميداني، والمحور الثالث غربًا للهجوم على المزرعة الصينية وذلك لفتح الطريق والاتصال بقوات آرييل شارون. وبعد قتال ليلي عنيف ومعركة مدرعات تصادمية وقتال مباشر استطاعت قوات «برن» فتح الطريق والاتصال بقوات آرييل شارون عند ساحل

القناة ومن ثم توصيل معدات وجسور العبور وفي يوم 71 أكتوبر 1973 وصلت القافلة إلى حدود قناة السويس وبدأ عبور المدرعات الإسرائيلية إلى الضفة الشرقية لقناة السويس وحدث ما يعرف بـ « ثغرة الدفرسوار» في الجيش المصري.

اجتاحته غصة من الألم عند الوصول لهذه النقطة، كان يعرف أن الثغرة من الممكن تصفيتها، ولكن القرار السياسي أبقاها، في النهاية كان كل الزملاء يحتفلون بانتصارهم وبطولاتهم بينما بقي مع قائده بلا انتصار.

اختفى هذا الألم سريعًا بمجرد وصوله إلى الإدارة، عندما تذكر أن المحتفلين قد خرجوا على المعاش، بينما بقي مع قائده في الخدمة، يحرزون نصرًا بعد الآخر على مكاتب القيادة في القوات المسلحة.

وصل العميد إلى القرية في سيارة خاصة بجهاز المخابرات، استقبله قائدا الصاعقة والشرطة العسكرية عند دوار العمدة الذي أسرع مرحبًا بالرتبة الأكبر التي وصلت إلى القرية، لم يعره العميد أي اهتمام وتجاهله موجهًا الحديث إلى القائدين:

- التقارير اللي وصلتني بتقول إنكم فرضتم حظر التجول النهارده، وفيه شيخ بلد مخطوف، وفيه عساكر اتضربت بالطوب من كام يوم، وكمان فلاحين اعتدوا على رجالة الصاعقة.

أومأ القائدان برأسيهما مؤمنين على كلام العميد الذي مد شفتيه

للأمام في غضب، ملقيًا نظرة احتقار على العمدة وكأنه المتسبب فيما حدث قائلًا:

- النهارده بعد ميعاد فرض الحظر تجيبولي العيال اللي ضربوا عسكري الشرطة والزبالة اللي اعتدوا على الصاعقة، ونحكم البلد اللي مالهاش حاكم دي.

ارتجف العمدة في ملابسه ثم حاول الكلام قائلًا:

- طيب سيادتك.

أوقفته نظرة أشد غضبًا من العميد الذي عاد إلى سيارته قائلًا:

- حارجع تاني بالليل تكون أوامري اتنفذت.

ثم تحركت السيارة لتعود في اتجاه المركز تاركة العمدة مشدوهًا، بينما انصرف الضابطان لتنفيذ الأوامر، وداخل السيارة أجرى العميد مكالمته الهاتفية.

- تمام يا سيادة اللواء، وصلت الكفر وجاري تنفيذ التعليمات، متشلش هم خالص سيادتك، الأرض حتبقى جاهزة خلال أسبوع، وخططنا إنها تتبني خلال 3 شهور يعني حنبقى جاهزين كمان في شهر 9.

ثم أغلق الهاتف مبتسمًا بعدما شد القائد من أزره.

■■■

صلى حمد شاهين وخالد البدري العشاء خلف الشيخ عبدالله، وأصرا على العودة معه إلى داره، حيث جلسا على مصطبته يعدان الشاي، متجاهلين حظر التجول بصحبة بعض شباب القرية، تساءل الشيخ عبدالله في قلق عن حفيده طه، فأخبره أهل الدار أنه لم يعد بعد.

ظهر القلق على ملامح الشيخ الكبير، وظل يعبث في الشامة التي احتلت جبهته دون أي تركيز في الحوار الدائر من حوله، انتبه خالد لهذا فتساءل:

- ما لك يا عم الشيخ عبدالله؟

- طه يا ولدي مرجعش، وخايف عليه من الحظر.

نظر خالد إلى حمد نظرة ذات مغزى فانبرى بدوره قائلًا:

- حنروح ندور عليه أنا وخالد يا مولانا ونرجعلك بيه.

وقبل أن يجيب الشيخ كان الشابان قد انطلقا بحثًا عن الطفل الغائب بينما اكتفى هو بالدعاء للجميع بالسلامة.

لم يفهم الأطفال معنى «حظر التجول» فخرج منهم من خرج للعب ليلًا وبقي من أدركه والداه وحبساه عن الخروج، تجمع القليل في ساحة المسجد فأشار لهم جندي الشرطة العسكرية بالانصراف والاستجابة لتعليمات الحظر، ابتسم الأطفال دون اكتراث وقرروا لعب «الطاقية في العب» بعدما أبدلوا الطاقية بكيس بلاستيكي من البول، وبدءوا ممارسة اللعبة متجاهلين الجندي الغاضب.

وبمجرد اقترابهم منه بحكم قوانين اللعبة، حرص طه على أن يكون الكيس في عبه، ثم أخرجه ليقذف به الجندي في وجهه وسط ضحكات الأطفال اللاهية، صرخ الجندي بفعل المفاجأة فانتفض زملاؤه النائمون ليلحقوا به، قبل أن يقرروا إبعاد الأطفال بالطوب.

بادلهم الأطفال قذف الطوب مرة أخرى، فأصيب أحدهم في رأسه وسقط، وأصيب طفلان فلم يتمكنا من الحركة، مع وصول خالد وحمد إلى الساحة، أسرع الجندي المصاب ساحبًا أجزاء بندقيته مطلقًا دفعة من الرصاص على الساحة بعد أن أعماه الغضب، ارتفع صوت طلقات الرصاص لتمحي صمت الليل في القرية بعد الحظر، بدت طلقاته المتتابعة وكأنها زلزال وتوابعه يهز أرجاء القرية.

تسمر خالد وحمد مكانهما بفعل المفاجأة، بينما فر الصغار كما يفر سرب من العصافير أخطأه الصياد، وبقي جثمان واحد لم يتحرك، بل ارتمى على الأرض دون حِركة، صرخ حمد بينما أسرع خالد دون وعي في الاقتراب من الطفل صارخًا:

– متضربش نار يا دفعة في حد اتصاب.

أسرع جندي آخر ليضرب دفعة أخرى في الهواء لينبطح خالد في خوف، ليسرع بقية الجنود إلى إلقاء القبض عليه، حاول مقاومتهم لكنه فشل، جروه جرًّا إلى داخل النقطة، ولكنه تمكن من إلقاء نظرة سريعة على الجثة الهامدة في ساحة المسجد ليكتشف أنه طه.

تعرض خالد للضرب داخل النقطة وحلاقة شعره على «الزيرو» وهو يبكي، أنسته صدمة رحيل الطفل آلام الضرب والإهانة، ظل يبكي طه لساعات بعدما توقفوا عن ضربه، وعندما عادوا للساحة كانت جثة طه قد اختفت.

بقي حمد بصحبة جثة طه مختبئًا في أحد دروب القرية طيلة الليل، لم يدرك الفارق بين دموعه ودماء الطفل القتيل، أصابته برودة الجثة التي احتضنها برجفة عجزت تلك الليلة الصيفية بحرارتها عن أن تمنعها، وجد نفسه للمرة الأولى يهذي هامسًا دون أن يتمكن من السيطرة على ما يقول:

- قتلوك يا ولدي علشان لعبة، موتك بشارة لأيام صعبة، قعدة على قعدة واتشمتوا الأعداء، بكره نموت كلنا زيك، فاكر يا ولدي وإنت لسه صغير، لعبك ومرحك وأنت زي الطير، لساك بتسأل ع الفرق بين الشر والخير، يروح من عينيك ضيك.

ثم يشتد الارتجاف مع اقتراب خطوات الجند، الذين تدق بياداتهم الأرض وكأنها تعاقبها على استقبال خطواتهم، ويصمت حمد محتضنًا الجثة أكثر، حتى تتلاشى طرقات البيادات رويدًا رويدًا، ومع ارتفاع أذان الفجر، يحمل الصغير متجهًا إلى المسجد البحري بعد أن تخدرت كل أوصاله بفعل البقاء منكمشًا طوال الليل، كما شله الحزن والألم.

يصل إلى المسجد متجاهلًا كل من حاول أن يستفهمه في الطريق، يضع الجثمان أمام المنبر، قبل أن يسقط مغشيًّا عليه، وأصوات الرصاص تزاحم أذان الفجر في عنان السماء.

■■■

لم تنجح شمس الصباح التي تثاءبت مع الشروق في التأثير على الزرع الدائخ بفعل السكر بالندى، ولا أفلح ضياؤها في منع ذلك الظلام الذي اجتاح القرية مع سواد ملابس نسائها التي خرجت زرافات تشيع جنازات الأطفال القتلى.

فقد كل بيت في القرية طفلًا، بكت القرية بأكملها للمرة الأولى منذ قرون، لم يلتفت أحد للاشتباكات التي اجتاحت الأرض المتنازع عليها، ولا المعتقلين من أبنائها، كلهم فقط تذكروا ملامح طه الأسمر النحيل، كلهم خسروا ابنًا وخرجوا ليودعوه.

امتلأت المساجد الأربعة بالمصلين والمعزين، حرص العميد الذي عرف الخبر مبكرًا على الوجود في المسجد القبلي، الذي خطب فيه أبو حيان خطبة طويلة تحدث فيها عن عقوبة القتل الخطأ في الإسلام، ووجوب قبول الأهل الدية، ولم ينس في النهاية أن يتساءل عن سبب هجوم الأطفال على جنود الخدمة تلك العيون التي باتت تحرس في سبيل الله.

اجتمعت المسيرات الأربع التي خرجت من المساجد في مقابر

القرية في توقيت واحد وكأنها ضربت ميعادًا، الكل زائغ الأعين حزين لفقدان طفل صغير، يجعل الموت المفاجئ غير المتوقع الإنسان أكثر ألمًا، يثير بداخله التساؤل حول جدوى حياته التي قد تنتهي في لحظة، قبل أن يتذكر براءة الطفل الميت فيصيبه الإحباط.

صراخ الأمهات الثكالى لم يتوقف، حاول الرجال منعهن من الصراخ، ومن لطم الخدود وشق الجيوب، لكنهم عجزوا، بعضهن أفلتن وقذفن السماء بالطوب لأنها اختطفت أبناءهن، أما الأكثر تدينًا فاكتفين بالنحيب.

خرجت «المعددات» تنشدن عديدهن دون توقف، بينما رفع الرجال أصابعهم تجاه السماء هاتفين:

- لا إله إلا الله.

حركت أرجل المئات التي زحفت من هول الصدمة طبقات التراب الموجودة على أرضية طرقات القرية، فامتلأ جوها غبارًا زاد الأجواء اختناقًا، وعجز البعض عن التنفس بفعل البكاء والتراب.

وفي النهاية عندما استعدت كل أسرة لإيداع طفلها مقبرة عائلته، وصمت الجميع فزعًا لفتح القبور، والذي صاحبه ارتباك غير مسبوق، لعدم كفاية عمال الدفن، مما اضطر بعض الشباب لمعاونتهم دون خبرة سابقة، إلا أن الجثامين بدأت في رحلتها النهائية للعدم، وصمت الكل من جديد بعدما أدوا صلاة الجنازة على المقابر كما اعتادوا من

قبل، وعلت أصوات المعاول التي تسد فتحات القبور لتمنع الحياة من الاختلاط بالموت، بينما بدأ البعض قراءة آيات القرآن الكريم، وخاصة سورتي «الملك» و«يس».

وقف آباء الراحلين صفًّا واحدًا يتقدمهم الشيخ عبدالله والعمدة، ومرَّ عليهم رجال القرية وشبابها معزين، يتخاطفون الكلمات في خجل غير مقصود.

- البقاء لله.

- سعيكم مشكور.

ومع صلاة العصر، تحولت القرية إلى مأتم ضخم، يعزي بعضه بعضًا، دون هارب واحد من ألم الفقدان، وحرص العميد بصحبة بعض رجال الصاعقة على المرور على كبار الأعيان والملاك لتعزيتهم بنفسه في حراسة رجال الصاعقة، الذين حلوا محل رجال الشرطة العسكرية في كل النقاط في القرية.

تلقى اللواء نبأ أحداث القرية في فزع، استشاط غضبًا وهدد العميد بمحاكمته إن لم يتم منع الموضوع من الوصول إلى الإعلام ومراضاة أهل الموتى، أغلق في وجهه الهاتف معطيًا إياه فرصة لمدة 84 ساعة.

نادى على جندي المراسلة الخاص به طالبًا كوبًا من الليمون لتهدئة أعصابه، أجرى اتصالًا هاتفيًّا بدفعته في جهاز المخابرات،

تناقشا في الحل، وانتهت المكالمة بوعد بإرسال فريق جديد من رجال المخابرات إلى القرية لحل المشكلة.

وضع اللواء سماعة الهاتف بعدما شعر ببعض الارتياح، تأمل جيدًا صورة قائده ووزير الدفاع، المعلقة على لوحة المديرين السابقين للإدارة ثم ابتسم رغمًا عنه.

تذكر جيدًا عندما ودع قائده في المطار في رحلته ليكون ملحقًا عسكريًا في باكستان، وواساه وهو يعرف أن طريقه في الحياة العسكرية قد أوشك على الانتهاء بعد هذه الوظيفة، لكن قيام الحرب الأفغانية الروسية ودخول الولايات المتحدة الأمريكية طرفًا فيها قلب المائدة، خاصة بعدما صارت مصر مسئولة عن توريد السلاح للمجاهدين الأفغان عبر باكستان، ليصير قائده محور الساعة، وعلى علاقة مباشرة بالوزير السابق والرئيس شخصيًا.

ويتحمل المسئولية التي حاول الجانب الباكستاني تعطيلها بغرض المشاركة، ومشاركة مصر الفائدة المادية بنقل السلاح، وهو ما رفضه الوزير السابق وقتها، فضاعت شحنة السلاح الأولى على الحدود الأفغانية الباكستانية، وتحجج الجانب الباكستاني بمرض وضعف وهزال البغال المصرية التي نقلت السلاح، حيث لم تكن المركبات قادرة على صعود الجبال لتسليم السلاح إلى المجاهدين الأفغان.

وهو ما دعاهم لعمل كروت صحية تعلق في رقبة البغل تثبت

صحته وقوة نظره، حتى لا يستطيع الجانب الباكستاني ادعاء تلك الأمور، وكانت الفكرة للمشير المستقبلي الذي ظل لأربع سنوات ينقل السلاح بكفاءة عالية، ليحصل على الرضا السامي، ويترقى لرتبة العميد ليعود في منصب قيادي مرموق، والدوائر العليا تشكره على المجهود الذي بذله وعاد على خزانة الأسرة الحاكمة بكل خير، وجب عليه مكافأته فيما بعد.

وبهذا صعد نجم المقدم الذي فقد كتيبته في حرب أكتوبر.

ابتسم اللواء وهو يضرب بيده على المكتب قائلًا:

- الحظ لما يواتي، شوية حظ بقى في العملية دي يا رب.

شهدت القرية خلال أيام قليلة العديد من الرجال الذين يرتدون ملابس رسمية كاملة تزينها ربطات العنق، والذين داروا على البيوت والمقاهي، واجتمعوا مع العديد من الأهالي، تسربت أخبار عن تنازل العديد من الملاك عن أرضهم بعد هذه الاجتماعات، وقَبِل بعض أهالي الراحلين وظائف حكومية، وقبل البعض تعويضًا ماديًّا تحت توصية وفتوى الشيخ أبو حيان، إلا أنه بمجرد مرور أسبوع، وبعد أن اطمأنت الشرطة العسكرية وعادت إلى نقاطها، وانشغل رجال الصاعقة بتوسيع المعسكر على الأرض المتنازل عنها، هز القرية مساءً هجوم عنيف بالأسلحة النارية على نقطة الشرطة العسكرية في محطة القطار، قتل جندي وأصيب آخر.

بينما تم اختطاف جندي من النقطة المجاورة للمسجد، وانتفض رجال الصاعقة والمخابرات لمواجهة الأحداث.

ومع تباشير الصباح الجديد كان اللواء نفسه موجودًا في ساحة المسجد، مشى العميد خلفه وقد التصقت نظراته بالأرض كطفل أخطأ وتمت معاقبته، أدى قادة الوحدات الفرعية التحية العسكرية لقائدهم الأعلى رتبة، أعطاهم تعليماته، قبل أن يتنحى جانبًا بقائد مجموعة المخابرات.

اقتربت منهم سيارة شرطة عسكرية حملت العمدة الذي طلبه اللواء، هبط العمدة من السيارة بتثاقل غير معتاد، انحنى وهو يلقي بالتحية على اللواء حتى شعر وكأنه يلمس الأرض، تذكر لوهلة صراخ زوجته حين تلقى هذا الاستدعاء وبكاءها الذي لم ينقطع منذ رحيل الطفل الصغير ومعايرتها له وهو يرتدي ملابسه على عجل قائلة:

- رايح تقابل اللي قتلوا ضناك يا زينة الرجالة، رايح تبوس إيديهم

يدرك الآن أنها لم تكن تستحق هذا الضرب الذي انهال به عليها، لكنه يعرف أنه لا بد من إسكاتها.

صرخ فيها قائلًا:

- وإيه اللي وداه هناك، ويضربوا العساكر ليه ولاد الكلب عُدماة التربية.

ثم انصرف وهو يسمعها تسبه كما لم يحدث من قبل.

قطع أفكاره تلك اليد التي وضعها اللواء على كتفه في حميمية لم يعتدها من رجال الجيش، قبل أن يخاطبه:

- البقاء لله يا عمدة، قلبي عندك.

نطق حافظ الشيباني بكلمات تشبه الهمهمة لم يفهم شخصيًّا معناها، ولم يهتم بها اللواء وكأنه لم يسمعها أو ينتظرها، حيث قال:

- العسكري المخطوف يرجع في ظرف ساعة، الجنود اللي اتصابوا حنسامحكم فيهم، الجندي اللي مات، البلد كلها حتدفع تمنه.

ثم ربت بعنف على كتفه قائلًا:

- يلا انت اتحرك هات العسكري.

مادت الأرض للحظات تحت قدمي العمدة، قبل أن يقذف بجسده داخل السيارة التي انطلقت لتعيده إلى المنزل.

لم ينقطع شباب القرية عن زيارة مصطبة الشيخ عبدالله منذ حادث قتل الطفل، كانوا يسمعون منه ويشير عليهم، وبمجرد أن يقوم لصلاة القيام في قلب الليل، تميل رءوسهم ليناقشوا شيئًا ما لم يعرفه، ولكنه شعر به.

خفت قبضة الجيش نهائيًّا في تنفيذ حظر التجول منذ الحادث،

فكانوا يذهبون ويجيئون في حرية، وقبل حادث الثأر بليلة استبقى الشيخ عبدالله خالد وحمد بعدما رحل الجميع متسائلًا:

- نويتوا علي إيه يا ولاد.

تململا قليلًا خشية الإجابة، إلا أن هيبة الشيخ أجبرتهما على الحديث فقال خالد:

- ناخد تار إخواتنا يا مولانا.

وأكمل حمد:

- حنهاجمهم يا شيخنا.

أظلم وجه الشيخ للحظات قبل أن يقول:

- أنا حفيدي مات شهيدًا، وكل بيت في الكفر فيه شهيد، أنتم كده حتفتحوا بير دم عمره ما حيتقفل.

انتفض خالد متجاهلًا وجوم الشيخ وهو يقول:

- بير الدم اتفتح خلاص، الحاج عبدالحميد اتنازل عن أرضه امبارح بعد ما المخابرات هددته ومسحت بكرامته الأرض قدام ولاده وحريمه، المقدس جرجس اتنازل عن الأرض، بعد ما العيال بتوع حيان حاصروا بيته وكانوا عايزين يولعوا فيه علشان قبطي، وراح العسكر طلعوه ومضُّوه ومشُّوا العيال، البلد بتتهان كلها يا مولانا لازم نرد.

نهض الشيخ عبدالله منهيًا الحوار دون رد واحد وهو يردد دون توقف:

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17]

حاول حمد اللحاق به لتوصيله إلى الدار، إلا أنه أشاح عنه فعاد أدراجه إلى خالد وقال له:

- الشيخ عبدالله كبر، ومبقاش حمل اللي احنا حنعمله، متزعلش يا خالد.

■■■

أعاد ضابط المخابرات التأكد من ضبط ملابسه بعد مغادرة منزل عفاف، ثم تلفت حوله بحرص، قبل أن يغادر المكان ملقيًا نظرة أخيرة على عفاف التي وقفت على سطح دارها تمشط شعرها كما اعتادت، ابتسم لها فابتسمت له ثم أسرع الخطى تجاه سيارته وأدارها ثم رحل.

عادت عفاف إلى صحن دارها بعدما ارتفعت أصوات الرصاص من جديد لتمحو الهدوء الذي يسود البلد، تساءلت عن مصدر تلك الطلقات، لكنها لم تهتم كعادتها بما يدور في القرية، ابتسمت لنفسها من جديد بعدما حصلت على معارف جديدة، تعلم أن ضابط المخابرات يستغلها لمعرفة أخبار عن كبار القرية الذين يزورونها، لكنها متأكدة أن قائد الشرطة العسكرية متيم بها، منذ اصطحبه شيخ

البلـد إبراهيم البقلـي في اليـوم الأول لدارها، أدركـت بكل خبرات الأنثى التي اكتسـبتها عبر عشـرات العلاقات أن الرجل عاشـق، منع الـكل مـن الاقتـراب منهـا بعدما أوعـز إلى البقلـي، الذي لبـى طلبه مرحبًـا، حتى أن العمدة لم يقرب دارها مـرة أخرى، ولم يتوقف عن إرسـال المال الذي تحتاجه، عجز ضابط الشرطة العسكرية فقط عن منـع ضابـط المخابرات مـن زيارتها، كانـت تعرف أنه يخشـاه، وقد صارحها مرة أنه يسـتطيع إيذاءه، وطلب منها عدم إخباره بعلاقتهما، سـقط من نظرهـا للحظات، إلا أنها آمنت أنهـا لا تملك ترف احتقار طوق نجاتها للخروج من الكفر، فقررت الحفاظ عليه.

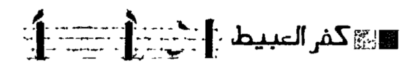
قطع استرسالها في أفكارها جلبة ضخمة على باب منزلها، أعقبها اقتحـام المنزل ودخـول خالد البري ومجموعة من الشـباب حاملين جنديًّا مقيَّدًا بالحبال ومكمم الفم.

أسرعت لتصرخ في الشباك طالبة العون، فاستقبلها أحدهم بلكمة قوية فقدت على إثرها الوعي.

وفـي الصباح اسـتيقظت علـى مقعدهـا بينما جلس خالـد أمامها ممسـكًا بسـلاحه واختفـى الباقون، وقبـل أن تنطق أدركـت أن فمها مغلق بشريط لاصق ويديها مقيدتين إلى المقعد.

ابتسم خالد وقال موجهًا الحديث إليها:

- محـدش حيفكـر يدور عليـه فـي دارك، حتخليه عنـدك يومين نطلب منهم يحلوا عن سمانا ونسلمه.



غير كده حتفضلي إنتي وهو معانا هنا.

أومأت برأسها ليفك القيود، فنزع خالد الشريط اللاصق ورفع رأسها إليه بهدوء قائلًا:

- إيه رأيك يا عفاف؟

■■■

لم يعد الأطفال إلى اللعب في ساحة المسجد منذ الحادثة، إلا أنهم انتشروا في دروب القرية وطرقاتها مساء هذا اليوم لينبئوا الجميع أن الجيش قد استعاد جنديه المخطوف، وأنه قام بإنشاء حواجز ونقاط تفتيش على مخارج القرية ومداخلها، وأن شيخ البلد سعفان المتولي قد عثر عليه رجال المخابرات في كفر صهايرة وأعادوه إلى داره.

ومع انقطاع الكهرباء عن القرية بالكامل قام الأطفال بدورهم كمذياع متحرك ينقل الأنباء. ألزم الخوف من الأنباء كل أسرة بيتها، وعم الظلام بمصاحبة الصمت القرية بأكملها تاركة البراح لصوت صراصير الغيط تواصل عزفها المنفرد.

بينما تحرك رجال القوات المسلحة بانتظام لتنفيذ الخطة النهائية للمهمة الموكلة إليهم.

■■■

الفصــل الأخــير

تختلـف شـجرة «أم الشـعور» عن أي شـجرة أخرى فـي الريف، بجذعهـا الضخم وفروعها التي تنتشـر وتتدلى فـي كل مكان حولها، وفـي التصاقهـا الدائم بمجاري التـرع والمصارف، وبتسـميتها على اسم تلك الجنية الشـهيرة، التي يشبه شعرها «المنكوش» دائمًا فروع تلك الشجرة.

تذكـر عبدالعزيز عيـد طالب كليـة الحقوق تلك الأسـطورة أثناء عودتـه من القاهرة إلـى قريته عند مدخل المركز، حيث شـاهد امرأة عاريـة ترقـد على شـاطئ الترعة في منتصـف الظهيرة وهـو منظر لم يعتده أبدًا، قال مخاطبًا نفسه:

- هي أم الشـعور طالعة تخطف عريس السـنادي، ربنا يستر على البلد.

اختفـت المرأة مع سـرعة «الميكروباص» ولكنهـا لم تختف من رأس عبدالعزيز الذي أخذ يحوقل ويبسـمل ويسـتغفر، مستطيرًا مما

رأى، وقبل مدخل القرية بمسافة، توقف الميكروباص منهيًا الرحلة على غير العادة، عند أول نقطة تفتيش عسكرية على حسب الأوامر التي أعلنها الحاكم العسكري الجديد للقرية.

فوجئ عبدالعزيز بلقب الحاكم العسكري وحاول الاستفسار، لكن الجنود لم يردوا عليه، ولم يغادر معه أحد الميكروباص، الذي أكمل رحلته في المركز.

تعرض عبدالعزيز لاستجواب بسيط حول سبب وصوله إلى القرية التي لم يدخلها ولم يخرج منها أحد منذ عدة أيام، ثم بقي في غرفة مفردة حتى انتصف الليل وسمحوا له بالخروج.

تحسس طريقه في البداية، من شدة الظلام المحيط بالقرية، ولكنه انطلق بذكريات الطفولة وكأنه في منتصف النهار، حتى وصل إلى بيته، طرق الباب في هدوء خشية أن يخدش صمت الليل، وأتاه صوت والده يصيح:

- مين؟

- افتح يابا.. أنا عبد العزيز.

اقتربت خطوات الأب الزاحفة من الباب وسمعها عبدالعزيز إلى أن اختفت مع ذلك الصرير الذي أصدره الباب الذي يُفتح.

اجتاز العتبة، واحتضن الأب بوحشة، دون أن يلحظ تلك الدموع التي سالت على خديه، لم يدرك مع شدة الظلام أي تغييرات في البيت، تساءل بعدما وضع حقيبته:

- خير يابا؟ مفيش في البيت شمعة ولا فانوس.

ربت الأب على كتفه في حنان:

- ادخل نام والصباح رباح.

لم يجهد عبدالعزيز نفسه ولا والده في المناقشة وقفز إلى فراشه لإنهاء ليلة مرهقة، قضى معظمها في حر خانق في نقطة تفتيش العسكر، ومع الصباح عندما أفاق مبكرًا كما اعتاد كل يوم منذ صغره سواء في القرية أو المدينة التي انتقل إليها من أجل الدراسة، وبمجرد أن فتح عينيه تسمرت جفونه من الفزع.

كان كل ما حوله بلا لون، درجات اللون الرمادي تصبغ كل شيء حتى نور الشمس، وكأنه يشاهد فيلمًا قديمًا بالأبيض والأسود، أغلق عبدالعزيز عينيه سريعًا داعيًا الله أن يكون في حلم، إلا أن صوت أمه المنادي في الخارج أكد له الحقيقة، اعتدل على فراشه وأعاد النظر فيما حوله، حاول البكاء في صمت حتى لا يسمعوه في الخارج، ولكنه عجز عن هذا فاقتحمت أمه الغرفة:

- ما لك يا وله؟

- مش عارف يامه، شايف كل حاجة أبيض واسود.

مطت الأم شفتيها ثم هزت كتفيها وهي تقول مغادرة الغرفة:

- قوم افطر، كلنا بقينا شايفينها كده.

■■■

لـم يفهـم أهل القريـة ما حدث خـلال الأسـبوع الأول من حادثة الثأر، بقيت الكهرباء مقطوعة، وأعلنت الشـرطة العسكرية عن تعيين العميد حاكمًا عسـكريًّا للقرية، يعاونه العمدة حافظ الشيباني للشئون الإداريـة، ثـم في اليـوم الثالـث توقفت أجهـزة الاسـتقبال الفضائية «الدشـات» عن العمل، وحـاول المتخصصون فـي القرية إصلاحها دون جدوى، وفي اليوم الرابع منعت الأحكام العرفية أهل القرية من مغادرتها، وفي اليوم الخامس اختفت الألوان.

أصيـب الجميع بالذعـر، وامتلأت الوحـدة الصحيـة بالباحثين عن الأمـل لـدى طبيب فقد القدرة نفسـها، أصـر الطبيب على لقـاء الحاكم العسكري مؤكدًا على وجود وباء غامض ينبغي إبلاغ وزارة الصحة به.

ابتسـم العميد في سخرية قبل أن يطالب جندي المراسلة الخاص به بإحضار منشـفته الزرقاء، وعندما عاد الجندي بالمنشـفة، تسـاءل الطبيب عن رد العميد الذي قال:

- وباء يا دكتور؟ فوق.. ما احنا زي الفل أهو.

انصـرف الطبيـب غاضبًـا إلـى سـنترال القريـة الصغيـر، محاولًا الحديـث تلفونيًّـا مـع المختصيـن، ولكن السـنترال بأكمله لم يكن يعمـل، حـاول مكالمة أحـد الأصدقاء عـن طريق تليفـون محمول، ولكنه كان بلا شبكة.

عـاد إلـى وحدته، طالبًـا ممن تبقـى الانصراف والعـودة في الغد للتجمع أمام مقر الحاكم العسكري، لطلب العلاج.

وفي الصباح تجمهر المئات أمام مقر الحاكم طالبين العلاج، فخرج إليهم العمدة متحدثًا:

- ما لكم يا كَفْر، عميتم خلاص، مش شايفين غير ابيض واسود؟ هو انتم قبل كده كنتم بتشوفوا الألوان؟ كل واحد ينجر على داره، بدل البلا ما يزيد.

لم ينصرف الناس، بينما تناثرت أقاويلهم الغاضبة لتسب العمدة ثم الحاكم العسكري، ثم حاول بعضهم التحرش بالعمدة الذي تراجع للاحتماء بالشرطة العسكرية التي أطلقت عبوات الدخان وسط الجمع المحتشد، ليتفرق الجمع، ويعاود التجمع مرة أخرى بعدما زال أثر الغاز.

انضم الشيخ أبو حيان إلى الجمع الغاضب، هاتفًا ضد العمدة في غضب، مطالبًا إياه بالتحصن مع أهل قريته، لا بالجنود، حمله أحدهم على كتفيه والكل يهتف غاضبًا، فأشار لهم بالسكوت.

- ما نحن فيه غضب من الله، ولعنة أصابتنا؛ لقتل الجند؛ أدعوكم للصيام والاعتكاف في بيوت الله، كما أدعو العمدة إلى التوقف عن أسلوب حديثه مع أهله، والعودة إلى الله حتى تحل اللعنة.

ثم هبط الشيخ إلى الأرض وانسل من بين الجموع، تاركًا إياهم ما بين غاضب ورافض، وحزين ومصدق، تبعته فئة ليست بالقليلة، بينما بقي البعض يتناقشون حول ما قال، ولأن الطريق إلى الله أيسر

من الوصول للحاكم العسـكري، وأكثـر جدوى لديهم من الاعتصام ببابه، أتى الليل والجميع ما بين المساجد وبيوتهم.

■■■

رفض الحاج شـاهين صقر التوقيع على التنازل عن الأرض حتى يتسـلم حمد وخالد، كان يعلـم أنه لـم يتبق غيره، لهذا تمسـك بشرطه حتى النهاية، وعندما يئس العمدة من إقناعه، استدعاه للقاء العميد.

اسـتقبله العميـد بترحـاب خاص، طالبًـا الغداء قبل البـدء في أي نقاش، رفض الحاج في تهذيب متعللًا بأنه يأكل طعامًا خاصًّا بمرض السكري، ولهذا لا يتناول الطعام خارج منزله، ابتسم العميد ثم أشار للجندي بالانصراف وقال:

– إنت ليه كاره بلدك يا حاج شاهين؟

اندهش الحاج من عبارة العميد وقال:

– حاشا لله أني أكره بلدي؟ إزاي؟

– ما انت الوحيد اللي مش عايز تديها الأرض تبني القاعدة علشان نحمي عمق البلد.

– يا سـيادة العميد أني موافق، بس عايز ابني وصاحبه اللي اتربى في داري.

ابتسـم العميد ثم تناول ملفًّا ورقيًّا أمامه وألقاه بإهمال أمام الحاج قائلًا:

- ابنك وصاحبه متهمين بالخيانة العظمى، قتلوا عسكري أثناء خدمته وخطفوا واحد تاني، مش بقوللك بتكره البلد.

ألقى شاهين صقر نظرة سريعة على الملف ثم قال:

- يا سيادة العميد إنتم قبضتم على أربعين شاب من القرية، كلهم قتلوا وخطفوا عسكريين إزاي؟

- في الجيش الحسنة بتخص والسيئة بتعم.

- بس احنا وولادنا مش في الجيش يا سيادة العميد، كفاية البلا اللي ملا البلد.

ارتفعت ضحكة العميد الساخرة أكثر مما قبل، ثم تناول القليل من المياه قبل أن يقول:

- موضوع الألوان ده، غريب جدًّا بصحيح، المهم تاخد ابنك بس وتمضي التنازل دلوقتي.

استغفر الحاج شاهين الله في سره، ثم قال:

- ابني وصاحبه، إنتم معندكومش شهود؟

هز العميد رأسه في هدوء شديد ثم قال:

- ما هو الأربعين واحد حنخرجهم إلا خالد بالذات، فيه على خطفه للعسكري شاهد عيان.

انتفض الحاج واقفًا:

- مين يافندم؟

- لا.. سرية القضية متسمحليش أقوللك.

ثم نادى على العمدة الذي قبع في مكتب السكرتارية ليأتيه بأوراق التنازل، أسرع حافظ ليضعها أمام الحاج شاهين الذي انحنى ليوقع قبل أن يرفع رأسه تجاه العميد، الذي صرخ في جندي المراسلة.

- هاتوا حمد ابن الشيخ من الزنزانة يروح مع ابوه.

■■■

خلال يوم واحد من خروج شباب القرية عدا خالد، انشغل الجميع عن الألوان بقصة خطف خالد للجندي ومحاولة إخفائه في بيت عفاف، التي أبدت تعاونها مع خالد، وبمجرد رحيله تم تسليم الجندي لقائد المخابرات، وإلقاء القبض على الجميع في آن واحد.

وأمام النيابة العسكرية حاول الجنود إغراء الكل بالشهادة ضد خالد، ولكنهم رفضوا لأن معظمهم تعاون معاه، وكانت تهمة الخطف مثبتة بعد شهادة عفاف أمام القضاء والنيابة، وحاول القاضي بطلب من اللواء والعميد إضافة تهمة القتل إلى نفس الشخص وإغلاق القضية، لكن الشباب رفضوا الشهادة مما زاد عدد أيام احتجازهم، وفي النهاية تم الإفراج عن الجميع، وتم حجز خالد للحكم في القضية واستكمال التحقيقات.

اختفت عفاف تمامًا عن الأنظار، وهاجمت مجموعة من أتباع

الشيخ أبو حيان دارها ونهبوه تمامًا مطالبين بحرق المنزل وإبعادها عن القرية، وعاونهم بعض الشباب الغاضب وأحرقوا المنزل بالفعل، لتأكله النار تمامًا خلال ساعات معدودة.

بينما أخذ فريق آخر من أهل القرية يحصنون دورهم ويؤمنون أقفالها، عقب تسرب أخبار عن استعدادات أهل «صهايرة» لشن هجوم على قريتهم، عقب عودة سعفان المتولي شيخ البلد المخطوف، حيث تداول الجميع قصة ينسبونها إلى سعفان نفسه، أنه كان برفقة زوجة عمدة كفر صهايرة الصغيرة، وفاجأهم العمدة في الفراش ونجح في الفرار، إلا أن الأهالي تعقبوه وخطفوه من قريته، وكانوا على وشك الإجهاز عليه، لولا فضل العسكر وإنقاذهم إياه في اللحظات الأخيرة، وأن عمدة كفر «صهايرة» أقسم أمام العسكر بالله ليأخذن بدلًا من سعفان أرواح عشرة من شبابها وليحرقن دورهم.

وعلى مصطبة الشيخ عبدالله شحاتة جلس حمد ووالده وبعض شباب القرية أمام الشيخ الذي توقف عن الحديث منذ حادثة الثأر، صمتوا في البداية احترامًا لصمته، قبل أن يقترب منه الحاج شاهين متوسلًا:

- يا مولانا لازم تتكلم، إحنا في بلا، ما بعده بلا.

أشاح الشيخ عبدالله بوجهه دون أن تتوقف شفتاه عن الارتجاف متمتمتين بالتسبيح. تأمل الحاج شاهين أنف الشيخ المكسور ثم واصل الحديث:

- إنت مش بس العلامة بتاعتنا، إنت بطل من أبطال الحرب، مين حيدلنا غيرك؟

لم يحرك الشيخ ساكنًا لكلام شاهين، فانكب على يده يقبلها.

- طيب وغلاوة طه النبي، ورحمة طه ابنك لترد علينا.

انتفض جسد الشيخ لذكر حفيده طه، ونهض واقفًا ليغادر الجميع دون كلمة واحدة، أسرع حمد ليحتضن والده الذي استند إلى الحائط الخلفي للمصطبة، معاونًا إياه على السير، وانفض الجميع.

وخلال طريقهما إلى المنزل لم يتحدثا معًا حتى اقتربا من أحد مقاهي القرية التي تعطلت بفعل توقف أجهزة الإرسال، وأدهشهما الزحام في ذلك المقهى تحديدًا.

همس الحاج إلى ولده:

- اشمعنى قهوة بسطاوي شغالة؟

ترك حمد يد والده قائلًا:

- ثواني يابا لما أشوف فيه إيه.

غاب حمد لدقائق قبل أن يعود غاضبًا ليستكمل المسير مع والده إلى الدار، تساءل الوالد عن سبب الازدحام فأجاب حمد:

- مفيش يابا.

إلا أنه مع تكرار السؤال والاستفهام أجاب في قهر:

- بسطاوي جاب فيديو وبيشغل أفلام أبيحة للعيال وهما ولا على بالهم بيدفعوا فلوس علشان يتفرجوا.

هز الحج رأسه في حزن:

- لاحول ولا قوة إلا بالله، اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا.

وعلى باب الدار لفت انتباه حمد جلوس أمينة في الحديقة وحدها، فترك والده وعاد إليها ليجدها جالسة أمام شجرة الورد البلدي التي زرعتها بيديها منذ كانت في الخامسة من عمرها. ابتسم حمد رغمًا عنه وقال محاولًا التخفيف عن أخته التي كسا الحزن ملامحها:

- الورد قاعد مع الورد.

أفلتت دمعة من عين أمينة ثم أحكمت قبضتها على وردة كبيرة قبل أن تقطفها بعنف لم يعتده حمد، حيث كانت أخته تمنعهم من الاقتراب من ورود هذه الشجرة حتى تذبل فوق فروعها وقالت:

- لون الوردة دي إيه يا أخويا؟

أجاب بتلقائية:

- أحمر يا أمينة.

صرخت فيه:

- أنا شايفاها سودة، وانت كمان شايفها سودة.

احتضن حمد أخته محاولًا العودة بها للدار قبل أن تنهار، وهي تبكي وتنهنه بشدة.

وعند فراشها سألته في ضعف:

– خالد مش حيرجع يا حمد:

عادت الحياة إلى طبيعتها في القرية، الفلاحون يذهبون إلى حقولهم صباحًا، بينما تفوح من الدور رائحة الخبيز المميزة، وتعكف النساء على «تزغيط» طيورهن عصرًا، ويعود المزارعون إلى دورهم قبل المغرب بقليل، بينما احتلت المعدات الأرض المختارة لبناء القاعدة وبدأت العمل.

اعتاد الجميع اختفاء الألوان وحمد بعضهم الله على توقف البث الفضائي حتى لا يشاهده باللونين الأبيض والأسود، وخلت القرية من أي مظاهر عداء للجيش على الرغم من تحولها إلى معتقل كبير لا يغادره إلا من له صلة قريبة بالحاكم العسكري.

استقل العميد سيارته ليستقبل اللواء الذي حضر بنفسه لمتابعة آخر تطورات البناء في الموقع، وأمام إحدى الجرافات جلس اللواء على أحد الكراسي الخشبية متأملًا، بينما صرخ العميد طالبًا كوبًا من الشاي لمضايفته.

سرح اللواء متأملًا الأرض من حوله ثم ابتسم للعميد الذي جلس أمامه على ركبتيه في انتظار الإشارة.

– سيادة العميد خد بالك وانت بتبني القاعدة مساحتها 5 فدادين، متخليش صبة الأسمنت تبور بقية الأرض.

ابتسم العميد مؤكدًا احترام التعليمات، قبل أن يستفهم قائلًا:

- طيب وبقية الأرض حنعمل فيها إيه يافندم؟

غابت الابتسامة عن وجه اللواء واحتلت مكانها تقطيبة عريضة جعلت العميد ينهض واقفًا.

- إنت بتسأل ليه أسئلة متخصكش؟ علشان تبقى عارف بعد افتتاح القاعدة وانصراف الريس والوزير، حاستلم منك تاني يوم الصبح 35 فدان ومزروعين.

ضرب العميد بقدمه في الأرض مؤديًا التحية.

- تمام يافندم.

نهض اللواء ليربت على كتف العميد مطمئنًا إياه على رضاه التام ورضا الوزير عن عمله قبل أن يقول:

- بس شد على القرية شوية علشان ميعملولناش قلق بعد نهاية الإنشاء، ولسانهم ميطولش على بقية الأرض.

- سيادتك تؤمر يافندم.

وقبل أن ينصرف اللواء، فوجئ العميد بوصول حافظ الشيباني بناء على طلب قائده، الذي طلب الاختلاء به لبعض الوقت، تنحى العميد حانقًا، بينما اقترب العمدة وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- سيادتك نورت وشرفت ياباشا.

- بلاش رغي كتير يا عمدة ، قدامك حوالي شهر ونص تكون خلصت الموضوع كله وتجيلي القاهرة تمضي عقود بيع للخمسة وتلاتين فدان.

تحولت ابتسامة العمدة إلى جسده الذي ارتجف طربًا ثم قال:

- أوامر سعادتك.

أشار اللواء له بالانصراف وهو يقول:

- خمسة وتلاتين فدان يعني خمسة وتلاتين مليون جنيه، عمولتك خمسة في الميه، حتيجي تمضي بايع وتمشي في إيدك شيك باتنين مليون إلا ربع ، مفهوم؟

- مفهوم يا باشا.

وقبل أن ينصرف، استوقفه اللواء قائلًا:

- حسك عينك حد يعرف بالموضوع ده، أو سيرتي تيجي حتى وانت بتمضي للمشتري.

وضع العمدة يده على فمه بسرعة قبل أن يقول:

■■■

ينقطع لساني سيادتك.

مع انتصاف الليل وحلول الظلام على القرية، ما عدا بعض المقاهي التي صارت تعمل بالمولدات الكهربية لاستضافة روادها،

وتشغيل أجهزة الفيديو التي انتشرت في القرية، ارتدى حمد ملابسه القاهرية استعدادًا لحضور محاكمة خالد في الصباح.

اقترب منه والده ليضع في يديه مبلغًا من المال، ويوصيه:

- أنـي مكنتـش عايـزك تخاطر بنفسـك وتسـافر، بس عـارف إنه ميتقعش نسيب الجدع لوحده.

شد حمد على يد والده الممتدة بالمال:

– متخافش يابا، ابنك يفوت في الحديد.

ثـم احتضنـه بشـدة قبـل أن يتركـه ليمـر بغرفـة أمينـة التـي تكوَّم جسـدها النحيل في الفراش متخذة وضع الجنين، هالَهُ اتسـاع عينيها المفتوحتين قبل أن تقول له:

– إوعاك خالد وشريط القطر يا حمد.

لم يسـتوعب حمد مـا قالته، وقبـل أن تفر دموعه مـن عينيه حزنًا على حال أخته، قبلها سريعًا وانصرف متجهًا إلى مقابر القرية.

وكانت المقابر لا تزال ضمن المناطق التي تقع تحت حظر التجول بـدءًا من صلاة العشـاء، لكن بخبرة الطفولة أثنـاء لعب التهريبة، كان يعرف جيدًا مخارجها ومداخلها التي لا يعرفها العسكر.

سـار برشـاقة عِشـرة الأرض ومعرفتهـا قبـل أن يوقفـه اصطـدام قدمـه بعلبـة أحدثـت دويًّـا، انحنى سـريعًا كاتمًا أنفاسـه، خشـية أن

يلفت انتباه أحد الجنود، قبل أن يتأمل علبة الحلاوة ويبتسم، تذكر رغمًا عنه، أنه منذ بدء سيطرة العسكر على القرية لم تدخل سيارة شركة واحدة بمنتج من الخارج، فقط نقلت سيارات العسكر بعض الأنواع الموحدة وباعتها لمتاجر القرية، قرر أن يشتري صندوقًا من الشيكولاتة التي تعشقها أخته في رحلة العودة. وصل إلى نهاية المقابر، احتمى بأشجار الجزورين العالية حتى نجح في الوصول إلى الطريق، جرى بحذائه دون أن يتوقف حتى اقترب من نقطة التفتيش، فابتعد عن الطريق مقتربًا من ضفة الترعة، ثم مشى بحذر حتى عبرها، وأطلق ساقيه للريح.

وبعد عدة كيلومترات، وبعدما تمردت عضلات رجليه، وتوقف صدره عن استقبال الهواء، جلس حمد على حافة الطريق يلهث بشدة انتظارًا لوصول سيارة عابرة، ومع تباشيز الفجر كان في طريقه إلى القاهرة لحضور محاكمة صديق عمره.

أجبره الإرهاق على النوم أثناء الطريق، إلا أن صوت السائق الغليظ المطالب بالأجرة على مشارف القاهرة أيقظه فورًا.

وبمجرد أن فتح عينيه أصابه الجمود للحظات، عادت الألوان أمام عينيه في أبهى صورها تأمل في شغف عجيب لم يدركه من قبل ذلك الأزرق المميز لميكروباصات الأجرة، زرقة السماء، خضار الزرع الموجود على جانبي الطريق، نسي نفسه للحظات، قبل أن يعاود السائق مطالبته بالأجرة.

أخـرج النقود دون وعي، وأعطاه إياها مسـتكملًا رحلة عيونه في عالـم الألوان، وعندما غادر السـيارة، لم يتجه مباشـرة إلى المحكمة بل سـار كثيرًا ليشبع عينيه أكثر،ومع وصوله إلى القاعة، كان القاضي يصدر حكمه على خالد بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا.

سقط صندوق الشيكولاتة الذي اشتراه في الطريق من يده، أسرع ليلقـي نظرة على خالد، الذي وقف في القفص رافعًا رأسـه الحليقة، ابتسـم عندما رأى حمد، ثم رفع له يده محييًا، ومع انقضاء الجلسـة، جرى حمد ليلمسه، قال له خالد عن بعد:

- متخافش عليا يا صاحبي، أخوك راجل.

واختفى دون أن يصل إليه.

وخـلال رحلـة العـودة، كان حمـد يشـعر وأن بقدميه أكياسًـا من الرمـال، نسـي حتـى أن يتذكر الألوان، ويعـاود التأمل فيهـا، وداخل القرية أدهشـته تجمعات صغيرة للرجال، يـدور فيها الهمس وكأنهم يعدون لشـيء ما، لم يثر فضوله، ولكن كيفيـة إبلاغ أمينة بالخبر كان كل ما يشغله.

لم يعر أهل القرية وصول الرئيس إلى قريتهم أي اهتمام، كان الجميع مشغولين بالمشكلة الجديدة، التي لا يعرف أحدهم من أول من فجرها، فقـط الـكل يعلـم الآن مـع رحيل فصـل الصيـف السـاخن، وانتصاف

الخريف، أبدع فصول الجو في مصر، أن رجال القرية غير قادرين على إشباع نسائها، حالة عامة من العجز الجنسي الذي اجتاح الرجال، الذين خجلوا من الإعلان عنه، قبل أن يكشفهم تهافتهم على أفلام البورنو المعروضة في المقاهي ثم انصرافهم عنها بعد فقدان الأمل.

أقسم أحدهم أن الماء ملوث، وامتنع عن الشرب حتى كاد يموت دون فائدة، بينما ادعى آخر أن الأطعمة التي يوردها الجيش إلى المتاجر تصيب بالعجز، وتوقف عن شراء أي شيء دون فائدة تذكر، تذكر الجميع عفاف وتمنوا وجودها مرة أخرى، غفر الجميع لها فعلتها، تمنوا أن تكون العلاج، وبذلوا كل محاولات العطارين والدجالين لحل الأزمة، إلا أنها تفجرت بشدة بعد اكتشاف العديد من وقائع الخيانة الزوجية بين نساء من القرية وجنود من الوحدات المنتشرة، ومع سقوط أول ضحية لجريمة شرف، كانت الشرطة تعلن الفضيحة على الملأ، مما اضطر رجال القرية للحشد أمام الحاكم العسكري مطالبين بحل الأزمة التي استشرت.

ابتسم العميد في مكتبه ساخرًا، قبل أن يطلب من العمدة أن يهدي إلى قريته فيلم «النوم في العسل»، لم يفهم العمدة المزحة ولكن الحشد كان يعوق استعداده للسفر إلى القاهرة للقاء اللواء، وهو ما جعله يريد إنهاء المشكلة وبسرعة، فخرج إلى رجال قريته خاطبًا فيهم:

- يارجالة.. ولا بلاش رجالة دي، إنتم خلاص مبقيتوش.

صرخ أحدهم مقاطعًا:

- يعني إنت بتعرف.

- طبعًا بعرف يا زبالة، إنت فاكرني زيك، أدي أخرة الأفلام الأبيحة اللي بتتفرجوا عليها، والله ربنا ليسخطكم قرود عن قريب، يلا كل واحد يروح يحط نفسه في داره بدل ما اخلي العسكر يعملوها فيكم إنتم بقى مش نسوانكم.

انهال الحشد على العمدة بالطوب، إلا أنه أفلت وعاد إلى داخل الدوار، بينما اعتصم الرجال أمام مكتب الحاكم العسكري، أملًا في حل للأزمة، وبعد انقضاء حوالي ثلاثة شهور على افتتاح القاعدة والعمل بها، كان الرجال قد فضوا الاعتصام وعادوا إلى أعمالهم مرة أخرى.

وبعد أيام، في اعتصام جديد لأهالي القرية يشتكون فيه حالات الاغتصاب التي يمارسها الجنود لنساء القرية، رافضين عنف هذه الحالات، مطالبين بمعاقبة فاعليها بالنقل، والابتعاد عن القرية.

منددين بالاغتصاب، ومعلنين رفضهم التام له بالعديد من الهتافات الغاضبة المدوية.

- لا اغتصاب لا اغتصاب.. بينا وبينكم النقاب.

- كله إلا كده، الواقعة مؤكدة.

كان العميد يحاول إجبار العمدة على الاعتراف بالصفقة التي تمت مع اللواء حول الأراضي الزائدة عن الحاجة لكشف مدير الإدارة والقفز على كرسيه، لكن الشيك المخبأ في صديري جلبابه ألجم فمه قبل أن يصدر صوتًا يشبه عواء الكلب.

أغضب تصرف العمدة العميد فلطمه على وجهه فبدأ العمدة في العواء من جديد، اشتد غضب الناس في الخارج، وأسرع إليهم شيخا البلد ليطالباهم بالهدوء.

اعتلى كلٌّ منهم شرفة الدوار ليطلب من الناس الهدوء فبدأ يعوي، نظرا إلى بعضهما البعض في دهشة بينما سخر الناس وقذفوهما بالطوب.

عاد شيخا البلد إلى داخل الدوار ليجدا العمدة واقفًا في ذهول يعوي هو الآخر.

■■■

صدرت الأوامر لبعض الوحدات بالانسحاب، بينما تم تمديد الوضع للعميد ستة أشهر للاطمئنان على عدم حدوث قلاقل مرة أخرى، وألغى بدوره كحاكم عسكري حظر التجول، وسمح بعودة الكهرباء، مما أثار سعادة الجميع داخل القرية، واحتفلوا هاتفين باسمه، مع اقتراب الموعد السنوي لمولد الشيخ «العبيط».

وقبل المولد بأيام قليلة، في صباح أحد الأيام الشتوية المطيرة التي تتحول فيها أرضية طرق القرية إلى مستنقعات طينية يصعب السير فيها، استقبلت القرية سيارتين لنقل جثث الموتى، الأولى سيارة عسكرية عبرت القرية وكأن قائدها يعرف طريقه وتوقفت عند دار خالد البدري، غادرها ضابط برتبة نقيب ليطرق على الباب.

فتحت والدة خالد الباب في دهشة، أحنى الضابط رأسه في خجل قبل أن يقول:

- البقاء لله يا حاجة، ابنك خالد تعيشي إنتي.

جذب صراخ الأم المفجوعة الجيران الأقربين، وكان حمد أول الوصول، تعلق في رقبة الضابط ليسأله كيف مات، أخبره الضابط أنه سقط على شريط قطار قادم أثناء انتقاله في السجن الحربي.

احتضن حمد جثمان صديق عمره، وهو يبكي، قبل أن يودعه بنفسه في القبر بعد جنازة غاب عنها الكثيرون، والذين فضلوا البقاء في منازلهم خشية المطر.

بينما اتجهت السيارة الثانية بعد سؤال العديد من أهالي القرية إلى بيت شيخ البلد إبراهيم القبلي، الذي استقبلهم بوجوم، بعد أن تم إبلاغه تليفونيًا منذ الصباح، ثم اصطحبهم إلى مقابر القرية،

ليودع جثمان عفاف مدفن عائلته الشخصي بناء على أوامر ضابط المخابرات المباشرة.

أخبره الضابط أنها ماتت في حادث سيارة، لم يهتم بالتفاصيل، كان يعرف أنها غادرت معه منذ حادثة الخطف وعاشت برفقته في القاهرة، وكان الوحيد في القرية الذي يعلم أين ذهبت، وبقي الوحيد في القرية الذي يعرف أنها ماتت.

وفي الصباح التالي أصر الشيخ عبدالله شحاتة على أن يزور قبر خالد، وللمرة الأولى منذ شهور سمعه أهل القرية يرتل القرآن، بصوته العذب الندي.

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 1 9]

وبمجرد أن أنهى ترتيله كانت أمينة تتحول بجواره إلى وردة نبتت على جانب القبر، امتدت قدماها حتى غاصتا في الأرض جذورًا، وتحول جذعها إلى ساق رشيقة لشجرة ورد بلدي، قبل أن تتحول ابتسامتها الغامضة إلى وردة حمراء، لم يرها غيره تتحول، لكنه للمرة

الأولى منذ زمن يرى لونًا غير الأبيض والأسود، ابتسم وربت عليها فاهتزت وكأنها تلتقي بالندى، تركها بصحبة حبيبها واتجه إلى دار الحاج شاهين، والألوان تعاود الظهور في القرية رويدًا رويدًا.

■■■

وبعد مرور سنوات طويلة على بناء القاعدة، بقيت القرية تروي أسطورة الفتاة التي تحولت إلى زهرة لم تذبل أبدًا على أحد القبور التي لا يذكرون صاحبها، والعمدة ورفاقه الذين تحولوا كلابًا ضاجعتهم القرية بالكامل لتستعيد عافيتها الجنسية، وبأن الألوان قد اختفت يومًا ثم عادت دون أن يدرك أحد عودتها ببركة مقام سيدنا «العبيط».

القاهرة

في 30 سبتمبر 2012


دار نهضة مصر
للنشر

رواية

كفر العبيط

....لم تشرق شمس الصباح في اليوم الجديد على القرية كما أشرقت منذ إنشائها، حيث انشغل كبارها قبل صغارها بمشاهدة تلك السيارات العسكرية التي تراصت على الطريق الأسفلتي المؤدي إلى مدخل قريتهم، تصفح الفلاحون هذا الرتل الحربي من السيارات "الجيب" الصغيرة التي ركبها الضباط والصف بأفرولاتهم الصحراوية المموهة وبياداتهم السوداء اللامعة في المقدمة، وسيارات النقل "البيجاسو" التي حملت بعض المعدات والخيام والصناديق في المؤخرة. اقترب الأطفال. بحكم الفضول الفطري - أكثر من السيارات التي بدأ راكبوها في مغادرتها وفرد أجسامهم للتخلص من عناء الرحلة، بينما اكتفى أقدمهم رتبة بالتحدث في هاتفه المحمول مشيرًا إلى أحد الضباط حتى لا ينفرط عقد جنودهم ويختلطوا بالفلاحين وأطفالهم....

كيف يؤثر الحكم العسكري في نفوس البشر وحواسهم؟ سؤال تطرحه رواية "كفر العبيط" الفائزة بمنحة الصندوق العربي للثقافة والفنون.. "آفاق"، للكاتب أسامة الشاذلي الذي يقدم لنا أحداثًا من نسج خياله تدور في إحدى القرى ال... الدلتا في مصر، حين يقرر الجيش انتزاع بعض أراضيها لإنشاء وحدة ... ونتيجة لمقاومة الأهالي يقوم الجيش بعزل القرية وحكمها عسكريًا. ... الألوان وكذلك الضعف الجنسي...





6 221133 345736
www.nahdetmisr.com